12

فورد ودبلوماسية الشرق الأوسط

ساعـدت إدارة الرئيـس جيرالد فـورد كلاً من إسرائيـل وجيرانها العرب على تخطـي الخط الحرج الفاصل بين معاهدات فك الارتباط العسكرية إلى مجاهل العملية السلمية. فقد دعمت معاهدات الفصل عـام 1974، فـي فترة رئاسة نيكسـون، وقف إطلاق النار الـذي أنهى حرب 1973 بين العـرب وإسرائيل. وقـد كانت معاهـدة سيناء الثانية للعام 1975 في فترة رئاسة فورد خطـوة فاصلة على الطريق الذي تتوج بمعاهدة السلام بين إسرائيل ومصر في مارس 1979، وبمعاهدة أوسلو بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل في سبتمبر 1993، وبمعاهدة السلام بين الأردن وإسرائيل في أكتوبر 1994 .

ويظـل التسـاؤل عما إذا كان النجاح الذي حدث بعد فورد تطـوراً طبيعياً، فما كان لفورد أن يطلق يده في هذا المشروع الخطر والمعقد خلال الأسبوع الأول من تواجده في البيت الأبيض، لكن الوضع المتفجر في الشرق الأوسط وسط مخاوف الدول الديمقراطية الصناعية من أزمة الطاقة، لم يترك لفورد أي خيار آخر. وقد أتت الدعوات التي وجهها الرئيس نيكسون إلى عدد من زعماء الشرق الأوسط ثمارها، حيث قام نيكسـون خلال شهر يوليو 1974، والذي يعد شهراً ختاميـاً حافلاً بالنسبة له، بمقابلة نائب رئيس الوزراء ووزيـر الخارجية الإسرائيلي إيغال آلون ورئيس الـوزراء الأردني زيد الرفاعي. كذلك تمت برمجة زيارات عديدة من قبل وزراء خارجية كل من مصر وسورية والمملكة العربية السعودية بما في ذلك الملك حسين بمعـدل زيـارة في كل أسبوع خلال شهر آب/ أغسطس، وفي ظل الجو المشحون بالكآبة والشك في الشرق الأوسط، فإن المماطلة وتأجيل هذه الزيارات كان يخشى أن يُفسرا كإشارة على تردد الإدارة الجديدة في متابعـة عملية السلام، بل كان يهددها ما هو أسـوأ، وهو أن هناك تغييراً وشيكاً في سياسة البيت الأبيض من شأنه أن يؤدي إلى اشتعال المنطقة.

المرجل

يعتبـر السراب ظاهرة طبيعية في الشرق الأوسط حيـث لا شيء يبدو على حقيقته في هذا الجزء من العالم. فعندما غادر الرئيس نيكسون الإدارة كانت «عملية المفاوضات» بين الدول العربية وإسرائيل على وشـك البدء بإزالـة الآثار المتراكمة لأربع حروب على مدى خمسة وعشرين عاماً. وبالرغم من ذلك، فإن

مـا من دولة عربية قد اعترفت بدولة إسرائيـل، وما من زعيم عربي وافق على التفاوض المباشر مع قادة إسرائيـل على القضايا والمسائل السياسية باستثناء الملك حسين الذي قام بمفاوضات على مستوى عالٍ مـن السرية، ولكنها كانت عديمـة التأثير. فأقصى ما قدمته الدول العربية هـو السماح بإجراء مباحثات عسكرية فنية تتعلق بوقف إطلاق النار وذلك تحت رعاية فريق ثالث، غالباً ما يكون من الولايات المتحدة الأمريكية، وأحياناً يكون من الأمم المتحدة.

عمليـة السـلام في المفاهيـم الدبلوماسيـة التقليدية لم تكن تمثـل الأجواء المثالية، فـدول وشعوب ترفضـ الاعتراف بعضهـا ببعض وكانت تتحدث عن السلام، حيث كانت البرامـج الرسمية لبعض القادة العـرب المشاركين في عملية السلام ماتزال تطالب باجتثاث الدولـة اليهودية، وهذه التناقضات تعكسها بشكل واضح ـ الصيغة شبه الملزمة للقرار 242 الصادر عن مجلس الأمن في الأمم المتحدة في نوفمبر 1967 ـــ والـذي يعد أحد الأسس القانونية الدولية للمفاوضات. فلقـد كان مطلوباً من إسرائيل الانسحاب إلـى «حـدود آمنة معترف بها» في سيـاق التعاقد على «سلام عادل ودائم» دون وجـود تعريف واضح لهذه الصفـات المشار إليهـا. وكانت الدول العربية تطالـب بالانسحاب من الأراضي المحتلـة كافة مع ضمان الاعتـراف الواضح بإسرائيل في نهايـة العملية. وقد أصرت إسرائيل بالمقابل على المفاوضات المباشرة التـي تتضمـن الاعتراف الصريح منذ بدء العملية. فكان كل طرفٍ يطالب بأعلى سقف من المكاسب ثمناً للدخـول فـي المفاوضات وفي توجه سبب الجمود والتأزم في المنتديات المختلفة لعقود من الزمن. ورغم تغيير اللاعبين الأساسيين في هذه العملية مع مرور الوقت، إلا أن السيناريو الأساسي لها لم يتغير.

كانـت كلٌ مـن إسرائيـل والـدول العربيـة تُسـاق بواسطـة القالـب التاريخـي الشخصي لـكل منها. فالإسرائيليـون الذين تحولوا إلى غيتو فعلي وحقيقي (كيان قائـم وموجود) عبر تاريخهم القومي، رهنوا عمليـة السـلام بما يشبه المضمـون الغيبي الميتافيزيقـي. إذ طالبوا بمعاهدة سـلام تقدم لهم علاقات وصلات مع دول الجوار تشبه تلك العلاقات ـ على سبيل المثال ـ الموجودة بين بلجيكا وهولندا، وذلك أن هـذا التعايش لا يوجـد حتى بين الدول العربية ذاتها، ولا يمكن للعلاقة بيـن إسرائيل وجاراتها من الدول العربيـة أن تتطور لأكثر من وثيقة رسمية منفردة إلا بعد انقضاء فترة طويلة من العيش السلمي المشترك بين الطرفين.

خلـق تطلع الإسرائيليين للسـلام عائقاً وقابلية للفشل والسقوط في آن واحـد. فقد بدا لفترة أن معظم الإسرائيليـين يتطلعـون للحصول على الكثير مـن الاتفاقيات الرسمية، بينما كان آخـرون منهم، وعلى نحو مناقضـ، مستعدين للمخاطرة بالتسوية مقابل القليل. وللوصول إلـى السلام الرسمي والاعتراف بدا قطاع واسع من الإسرائيليين عرضة للإرباك والخلط بين الحيثيات والجوانب الشرعية للسلام وبين جوهره. وبات من الصعب ضمن إسرائيل التوصل إلى توازن بين متطلبات الأمن المطلقة ومتطلبات السلام المطلقة.

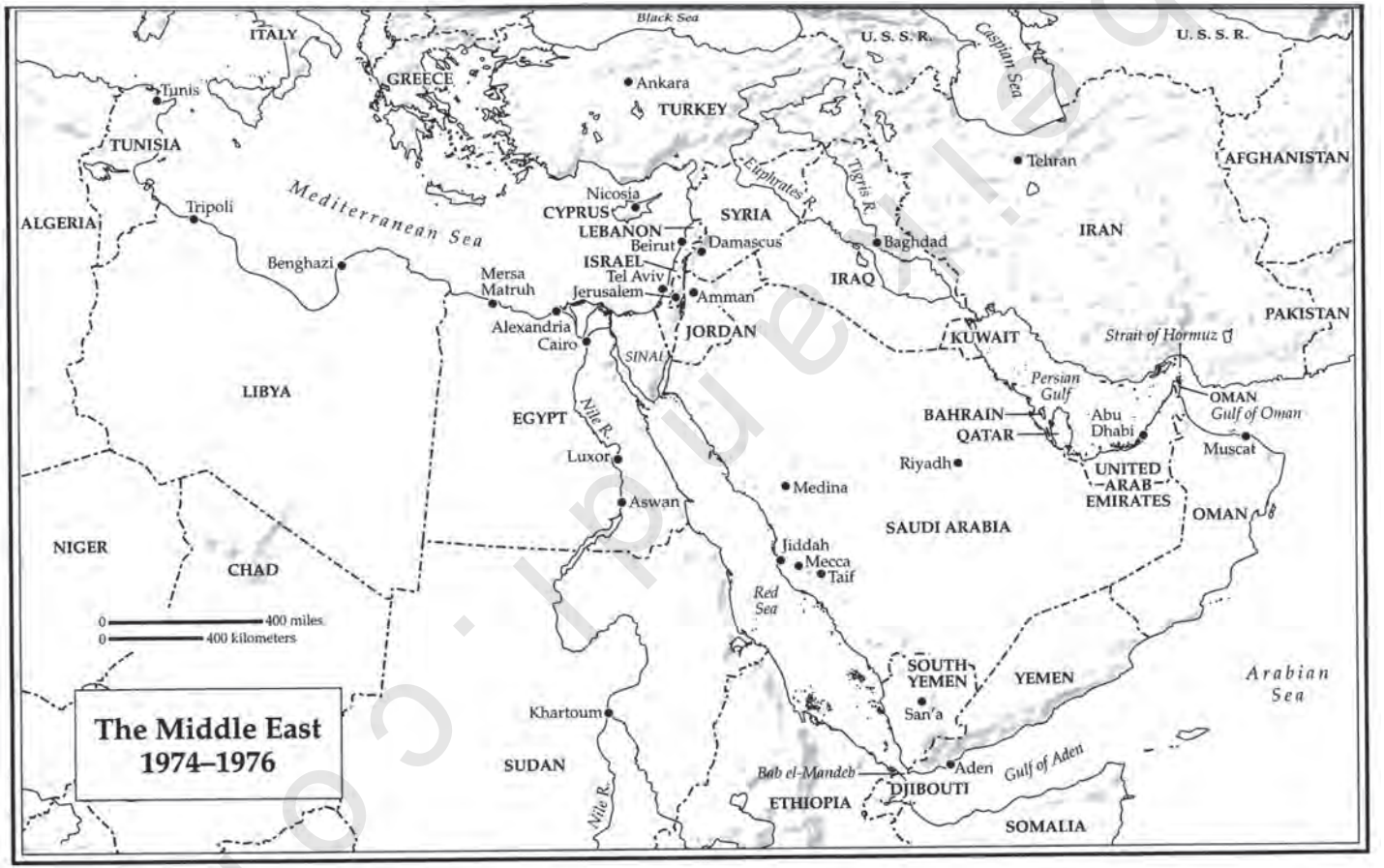
Black Sea
U. S. S. R.
Caspian Sea
U. S. S. R.
ITALY
GREECE
Ankara
TURKEY
Tunis
TUNISIA
Tehran
AFGHANISTAN
Euphrates R.
Tigris R.
Nicosia
CYPRUS
SYRIA
Tripoli
ALGERIA
Mediterranean Sea
LEBANON
Beirut
Damascus
Baghdad
IRAN
ISRAEL
Tel Aviv
Benghazi
Mersa Matruh
Jerusalem
Amman
IRAQ
PAKISTAN
Alexandria
Cairo
JORDAN
KUWAIT
Strait of Hormuz
SINAI
Persian Gulf
LIBYA
OMAN
Gulf of Oman
EGYPT
BAHRAIN
QATAR
Abu Dhabi
Nile R.
Luxor
Riyadh
Muscat
UNITED ARAB EMIRATES
Medina
Aswan
OMAN
SAUDI ARABIA
NIGER
CHAD
Jiddah
Mecca
Taif
Red Sea
0 400 miles
0 400 kilometers
SOUTH YEMEN
YEMEN
Arabian Sea
Khartoum
San'a
SUDAN
Bab el-Mandeb
Aden
Gulf of Aden
Nile R.
DJIBOUTI
ETHIOPIA
SOMALIA
The Middle East
1974–1976

وقـد شـكل الصراع الطويل مـع إسرائيل إهانة كبيـرة للشعوب العربية، كما بين لـي الرئيس السوري حافـظ الأسد مستعيراً مقولة الملك عبد العزيز ملك السعوديـة للرئيس فرانكلين د. روزفلت قبل ثلاثين عاماً: «لماذا يجب على العرب أن يدفعوا بأراضيهم ثمن الجرائم التي ارتكبتها أوروبا بحق اليهود؟ ولماذا يتوجـب على العرب أن أن يقبلوا بادعاءات كتـاب مقدس لدين هم أنفسهم لا يعتنقونه؟!». لقد أدت جميع المحـاولات الراميـة لتحقيق تلك القناعات على مـدى أربعظ حروب، إلى سلسلة مـن الكوارث العسكرية بسبـب سـوء تقدير جيران إسرائيـل لقدراتهم العسكرية، حيـث رفضوا خطة الفصل التـي أقرتها الأمم المتحـدة فـي نوفمبر 1947، وفضلـوا الذهاب إلى الحرب، فـكان النصر حليف إسرائيـل مما مكنها من مضاعفـة مساحة أراضيهـا مؤسسة ما عُرف لاحقاً بـ «حدود ما قبل حزيـران 1967» (وهي فعلياً خطوط الهدنة لعام 1949). وفي سياق هذه العملية قامت إسرائيل بنقل العاصمة إلى القسم الغربي من القدس، الـذي كان بالإضافة إلى البلدة القديمة تحت الوصاية الدوليـة للأمم المتحدة، وظلت البلدة القديمة في القدس تحت الوصاية الأردنية إلى عام1967 .

لـم تغيـر الهدنة بين إسرائيل وأربع دول عربية عام 1949 من موقف الشعوب العربية حيال عدم قبول الاعتراف بها والتفاوض معها. وفي عام 1954 ظهرت مبادرة سلام تمهيدية مقدمة من بريطانيا العظمى مرتكـزة على أسس مطالب الزعيم المصري جمال عبد الناصر والتي تدعو إلى عودة إسرائيل إلى حدود التقسيم الذي وضعته الأمم المتحدة، الأمر الذي يعني تخلي إسرائيل عن نصف أراضيها. ولم تتغير هذه التوجهات حتى العام 1956 عندما ردت إسرائيل (في العدوان الثلاثي مع بريطانيا وفرنسا) على اتفاقية التسلـح التي عقدها ناصر مع الكتلة الشيوعية وعلى تأميمه قناة السويس، باحتلالها لشبه جزيرة سيناء. وعندمـا ضغطت الولايـات المتحدة على إسرائيل للتخلـي عن غزوها للدول المجاورة، تبـادر إلى أذهان الزعماء العرب أنهم قد وجدوا شبكة النجاة الدائمة ضد السياسات المعادية، بزعم أن الولايات المتحدة لن تؤيد أي تغير في الوضع الإقليمي الحالي لصالح إسرائيل.

لكـن أحداث عـام 1967 علمتهم غير ذلك، ففي شهـر حزيران من ذلك العام، طالـب ناصر وبشكل حاسـم بانسحاب قـوات الطوارئ التابعـة للأمم المتحـدة (UNEF) والتي تم نشرها علـى طول الحدود المصرية الإسرائيلية باعتبار أنها قوات فصل وذلك على أثر الانسحاب الإسرائيلي من سيناء عام 1956 . ثم قام عقب ذلك بإقفال مضيق تيران، مغلقاً بهذا الطريق أمام مرفأ إسرائيل الوحيد على البحر الأحمر فـي إيلات. وإزاء عـدم تصدي كلٍ من الأمم المتحدة (UN) والولايات المتحـدة الفعال لانتهاك إسرائيل للاتفاقيـات الدولية، قامت الأخيرة بهجوم مباغـت حققت من خلاله انتصاراً باهراً، حيث وصلت قواتها مـرةً أخرى إلى قناة السويس، واحتلت مرتفعات الجولان والضفة الغربية لنهر الأردن كلها، بالإضافة إلى البلدة القديمة من القدس، وبتلك الطريقة ضاعفت إسرائيل مرةً أخرى من مساحة أراضيها.

وفجـأة أصبحت حدود 1967، التي رفضـت كل الدول العربية الاعتراف بها عندما كانت موجودة على الأرضـ، قيمة مقدسة وحرمة لا تنتهك في عيون العرب، وانقلبـت إلى علامة فارقة للتفاوض، وخصوصاً بالنسبـة لتلـك الدول التي بدت غير مستعدة للتفاوض على هذا الأمر البتة. وفي تلك اللحظات أيضاً وجد بعضـ زعماء الدول العربية صعوبة في إرغام أنفسهم علـى التلفظ بتلك الكلمة السحرية: «السلام». وقد أخبرني في عام 1973 أحد وزراء خارجية العرب «أنه ما من أحد يرغب أن يكون وزيراً تلعنه الأجيال لكونه أول من دخل في صلح مع إسرائيل».

كان الزعيـم العربـي الوحيـد ذا النوايا الواضحة قبل العـام 1973، هو ذلك الفارسـ الشجاع الملك حسيـن ملـك الأردن، وهو الذي حكـم الضفة الغربية والبلدة القديمة للقدسـ حتى حرب 1967، وقد كان الصديـق الوفـي للغرب، إذ قام بعدة لقاءات دوريـة وسرية مع قادة إسرائيل، لكن نظـراً لكونه ظل يعمل بشـكل منفـرد وسري، كان أضعف من أن يمثل تهديداً حربياً بـل وضعف من أن يعقد اتفاق سلام منفرد. كان مـن الممكـن بالنسبة له أن يكـون الأردن البلد العربي الثاني في هذا الشـأن، لكنه حتماً لا يسعى لأن يكـون أول مـن يعقد صلحاً تفرضه الدبلوماسية الأمريكية في الشـرق الأوسط ـ وتلك كانت فكرة ساخرة لـم تساعـد حقاً في تقدم الأوضاع لأنها أبقت الباب مفتوحاً للسـؤال التالي: «من سيكون الأول في الصلح بأي طريق؟».

تعقـدت الإجابـة عن هذا السـؤال بسبب الخـلاف الداخلي الذي نشـب بين العرب علـى من سيمثل الفلسطينييـن، الذيـن كان قدرهم يشكل أصل الأزمة. إذ تشكلت «منظمـة التحرير الفلسطينية» (PLO) لتمثـل مطالب الشعـب الفلسطيني، وعلى وجه الخصوص اللاجئين المنتشريـن في أرجاء الوطن العربي كافـة والذين كان عددهـم يقارب 1.5 مليون لاجئ عندما تسلم نيكسون منصبه في البيت الأبيض (وعند كتابة هذه السطور أصبح عددهم يفوق 5 مليون).

كانـت منظمة التحريـر آنذاك منظمة متطرفة أكثـر من تلك المنظمة السياسيـة المروضة نوعاً ما، والتي عقدت اتفاقية أوسلو للسلام مع إسرائيل في سبتمبر 1993 . كان سلاح المنظمة الرئيسي في ذلك الوقت، هو الإرهاب ضد الأفراد والجماعات التي عرفت بميلها نحو محادثات السلام، كما كانت سياساتها متطرفـة راديكالية ومؤيـدة للسوفييت، إذ يدعو ميثاقها الأساسي إلى تدميـر إسرائيل. وبالمقابل، قامت إسرائيل برد هذا الجميل للمنظمة في عام 1970 ورفضت التفاوض معها.

كان موقـف الـدول العربية تجاه منظمة التحرير الفلسطينيـة (PLO) يتذبذب بين الاحترام والقلق. فقد أثارت قدرة المنظمة على الاغتيال وإثارة الاضطربات بين المدنيين المخاوف بشكل كبير. وفي الوقت نفسـه شـكل نضالها ضد إسرائيل جزءاً من الصراع ضد الاستعمـار والهيمنة، مما أعطاها شعبية كبيرة بين الجماهير العربية ودول عدم الانحياز. في عام 1969 وحين دخل نيكسون إلى مكتبه في البيت الأبيض،

كانـت كل الحكومات العربية تقريباً ما عدا الأردن، تعتبر «منظمـة التحرير الفلسطينية» الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ـ مما كان يعني نسف أي أمل للتفاوض مع إسرائيل من أجل السلام.

كان بعض الزعماء العرب، للخروج من هذا المأزق، على استعداد للتفاوض عبر الأردن ـ وحدث ذلك في ديسمبر من العام 1973 في مؤتمر جنيف ـ باعتبار أن الأردن كان يحكم الضفة الغربية والبلدة القديمة في القدس حتى حرب 1967[2]. وقد كانوا يفعلون ذلك مع التشديد على أن استعادة أي أرض يوجب بالتالي إعادتها لمنظمة التحرير الفلسطينية مع ضمان عدم اعتراض إسرائيل على هذا. وكان ذلك وهماً تقليدياً للشرق الأوسط الذي يأمل أن تقوم إسرائيل بإعادة المناطق المحتلة بالوكالة إلى منظمة قام ميثاقها على مبدأ تدمير إسرائيل.

فوق هذا المرجل كان الاتحاد السوفييتي يحوم. وقد أصبح ممول الأسلحة الرئيسي للعرب المتطرفين بمـا فيهـم مصر تحت قيادة ناصـر، وكان ذلك إبان تولـي نيكسون لمنصبه. إذ احتفظـت موسكو حينها بصـلات استخباراتيـة وثيقة مع عدة مجموعـات إرهابية، تلقـى غالبيتها التدريب فـي معسكرات الكتلة الشرقية أو على أيدي شخصيات تابعة لهذه الكتلة. وقد قدمت الدبلوماسية الروسية دعماً واسعاً لأقصى برامـج الـدول العربية تطرفاً وهي: عودة إسرائيل إلى حدود 1967 واستعادة كل الحقوق الفلسطينية كافة غيـر المحدودة، مقابـل ضمانات دولية غير محـددة لحدودإسرائيل، مما سيتـرك لإسرائيل ممراً ضيقاً بعرض تسعة أميال فقط بين مدينتيها الساحليتين تل أبيب وحيفا. وبالمقابل لم يطالب الاتحاد السوفييتي أصدقاءه العرب بالقدر نفسه من التضحيات.

كان هـذا العرض غيـر مربح وبلا جدوى بالنسبة لـلإدارة الأمريكية، وبالتالي لـم يكن لدينا الحافز للمشاركة في العملية الدبلوماسية ـ وبقدر أقل المشاركة في مؤتمر متعدد الأطراف ـ والتي قد يظهر فيها الاتحاد السوفييتي محامياً عن الجانب العربي ويتناور معنا ليضعنا في موقع منفصل إلى جانب إسرائيل، أو أن يرغمنـا علـى إجبار إسرائيل على الإذعـان والموافقة على برنامج لا يتوافق مـع رغبتها في الوجود علـى المـدى الطويل، وبذلك نكون قد خذلنا أو لربما قسمنا ظهر حليف قوي لنا، ونكون قد أتحنا الفرصة للسوفيت لنسب الفضل إليهم بالنسبة للنتائج؛ وإذا فشلنا في حماية إسرائيل، فإن ذلك سيثير حتى العرب المعتدليـن. فقد أخبرت السفير الروسي أناتولي دوبرينيـن بأنه يمكننا التعاون مع الاتحاد السوفييتي في الشـرق الأوسـط فقط إذا ما تخلـت موسكو عن عملائها العـرب المتطرفين بالقدر نفسـه الذي تطالبنا فيـه موسكـو بفصل موقفنا عن الموقف الإسرائيلي. (وقد أبدى دوبرينيـن أسفه لتعنت المكتب السياسي ورفضه اتباع مثل هذا النهج)[3].

نظـرت إدارة نيكسـون حديثة العهـد إلى هذا المأزق على أنه تحد لخلق حافـز لدى العرب المعتدلين للعمـل علـى تخفيض النفـوذ والتأثير السوفييتـي، ولتحريك المفاوضـات العربيـة الإسرائيلية على هذه

الأسس. وقد رصدنا مبالغ كبيرة لهذه السياسة. وبقدر ما استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية إبقاء دولة إسرائيل قوية، فإن ورقتنا الرابحة هي عدم قدرة الاتحاد السوفييتي على الحسم العسكري ـ رغم قدرته على رفع مستوى التوتر دبلوماسياً ـ عدم قدرته على القيام باختراق ديبلوماسي وفقاً لمفاهيمه. ففي كل مرة كان فيها الكريملين يهدد بالتدخل، كما حدث في حربي 1956 ـ 1973، إذ كان يعود ويتراجع عندما كان يصطدم بمخاطر المواجهة العسكرية مع الولايات المتحدة الأمريكية[4].

وإذا افترضنا أن تحليلنا للأمور كان صحيحاً، وأننا قد تحققنا من لعب أوراقنا بشكل صحيح، فإن الولايات المتحدة ستصبح في موقع يجعلها قادرة على إجبار الاتحاد السوفييتي على صياغة تسوية حقيقية عاجلاً أم آجلاً، فإن أحد عملاء موسكو العرب سوف يكسر القاعدة ويبدأ بالتحرك باتجاه الولايات المتحدة لتحقيق جزء من مصالحه الوطنية. وفي وقت مبكر من فترة نيكسون الرئاسية الأولى، كنت أخبرت الصحفيين خلال عرض موجز لخلفية الإدارة وسياساتها: «أن الإدارة الجديدة تبحث عن كيفية عزل الاتحاد السوفييتي وإقصائه عن الشرق الأوسط»، كانت تلك الملاحظة فظّة وغير دبلوماسية، خلقت غضباً شديداً آنذاك، لكنها وَصَفَت استراتيجية البيت الأبيض في عهد نيكسون بشكل صحيح[5].

ولتحقيق هذا الهدف قمنا بتبني سياستين مكملتين لبعضهما البعض هما: القيام بصد وإيقاف أي تحرك عربي يعتمد على الدعم العسكري السوفييتي أو يتضمن تهديداً عسكرياً سوفييتياً، والعمل على رعاية عملية السلام وتعهدها، وذلك عندما يدفع الإحباط والإخفاق بتحقيق التسوية بعض القادة العرب الرئيسيين إلى الانفصال عن الاتحاد السوفييتي، والتوجه نحو الولايات المتحدة الأمريكية.

ظهرت أول بوادر العمل بهذه الاستراتيجية في يوليو عام 1972، بعد فشل قمة نيكسون بريجينيف في شهر مارس في تحقيق أي تقدم حول الشرق الأوسط. فكان رد فعل الرئيس السادات طرد المستشارين العسكريين الروس، وإقصاء الخبراء الفنيين الروس، ثم استهل السادات مباحثاته الدبلوماسية مع البيت الأبيض في فبراير 1973 بإرسال مستشاره الأمني محمد حافظ إسماعيل، إلى واشنطن لإجراء لقاء رسمي مع نيكسون، تبعه لقاء سري معي في نيويورك. وقد كان التقدم بطيئاً بسبب فضحية وترغيت التي اكتسبت زخماً كبيراً، وبسبب ممانعة السادات من معاداة أقرانه العرب أو حتى معاداة موسكو كونه في حاجة لدعمهم في حال الخيار العسكري. فقد كانت النتيجة أن قدم لنا إسماعيل ما بدا كحال مطالب العرب المعتادة: «انسحاب إسرائيل إلى حدود 1967، مع ضمانات غير واضحة بتبادل بعض الامتيازات مع العرب».

لقد أخطأنا في تقدير الرئيس السادات حق قدره استناداً إلى تجارب الحروب العربية –الإسرائيلية، وتعاملنا مع تهديداته باللجوء إلى الحرب في حال عدم تحقيق أي تقدم ديبلوماسي على أنها إيماءات مسرحية. حتى طرده للخبراء الروس في يوليو 1972، فُسر بدون أي تقدير على أنه أمارة أخرى من

أمـارات حـب المشاكسة الفطري لديـه، طالما أنه لم يحـاول الحصول على إشارة منا بهـذا الشأن. ولم يتبادر إلى أذهاننا نهائياً أنه كان يمهد الطريق للعمل العسكري، وأنه كان يعمل على إزالة كل ما كان يعتقد أنـه عقبـة روسية قد تواجه هذا التحرك (لقد كان السادات محقاً فـي تحليله بكل تأكيد، فقد كان إقحام القوات الروسية في حرب ما في الشرق الأوسط، هو أخر ما يطمح إليه القادة السوفييت).

شنـت كل مـن سورية ومصر هجوماً مفاجئاً ضد إسرائيل فـي أكتوبر 1973. وبالرغم من أن الجيوش العربيـة قاتلـت بشكل أكثـر فعالية من الحروب السابقـة، إلا أن إسرائيل استطاعت عبـور قناة السويس، وتوغلـت في عمق الأراضـي المصرية، موقعة الجيش المصري الثالث تحـت حصارها، كما احتلت بعض المناطق السورية حتى وصلت إلى ضواحي دمشق.

لكـن عنصـراً جديداً قد طرأ، فقد بـدا السادات أول زعيـم عربي يقوم بتحول فاصـل باتجاه عملية السـلام. فبعـد استعراضه لقدرات مصـر العسكرية، شرع باستبعاد نظرية عبـد الناصر القائلة «إما كل شـيء أو لا شـيء»، وتوجه نحو الدبلوماسية، ونقـل أولويات مصر الدبلوماسية مـن موسكو إلى واشنطن. كان السـادات أول زعيم عربي يـدرك أن الصراع العربي الإسرائيلي يمثل صراعاً نفسياً سيكولوجياً بقدر مـا كان صراعاً سياسيـاً وعسكرياً. فالعداء المتأصل في الذهنية والمـزاج العربي تجاه إسرائيل لم يعط الأخيـرة الدافع للدخول في العمليـة الدبلوماسية، ومع وجود بلدهم على خـط المواجهة بشكل دائم، ظل القـادة في إسرائيل ملتزمين بمواقع القوة الاستراتيجية. وفي الولايات المتحدة أصبحت القضية العربية معروفة من خلال تحركات وأعمال الإرهابيين العرب.

بـادر الرئيس السادات إلى تغييـر هاتين الصورتين عن العرب، ووافق على إجراء محادثات مباشرة مع ممثلين عسكريين إسرائيليين بعد أسبوعين من انتهاء الحرب بشرط وقف إطلاق النار عند الكيلو متر 101 على طريق القاهرة ـ السويس، وبعد عدة أسابيع، حمّلني الرئيس السادات رسالة إلى رئيسة وزراء إسرائيل غولدا مائير يوضح فيها التزامه بالسلام، فيقول: «عندما هددت بالحرب، كنت أعني ما أقول، والآن عندما أتكلم عن السلام، فأعني ما أقول». وفي 18 يناير عام 1974 نقلت رد غولدا مائير إلى السادات الذي صرحت فيه قائلة: «سأبذل ما بوسعي لإرساء الثقة والتفاهم بيننا، لأن شعبينا يحتاجان السلام ويستحقانه».

لاحقـاً، فـي ذلك اليوم المجيد من أيام يناير، كنت أنا والسـادات نتحدث في مكتبه عندما دخل أحد مساعديه إلى الغرفة وهمس بشيء في أذنه. فتوجه السادات نحوي والدموع في عينه، ثم قبلني على خدي وقال:

> لقـد وقعوا للتو اتفاقية عند نقطة الكيلو متـر 101. سوف أخلع من اليوم بزتي العسكرية. ولا أتوقـع ارتداءها بعد اليوم إلا في الاحتفـالات الرسمية. أبلِغها (يقصد رئيسة الوزراء مائير) أن هذا هو الرد على رسالتها.

وَفَّى السادات بوعده. فعندما اغتيل في أكتوبر 1981 كان يرتدي البزة العسكرية في مناسبة احتفالية لإحياء ذكرى حرب أكتوبر 1973 .

وقد تحررت اتفاقية الفصل بين مصر وإسرائيل في يناير 1974، لتحقيق الانسحاب الإسرائيلي من قناة السويس، مع تعهد الطرفين بالتعاطي مع خلافاتهما بالطرق السلمية. وبعد عدة أشهر، تحديداً في مايو، عقد أسد سورية، الذي يعد أكثر زعماء العرب تقليدية، اتفاقية مماثلة تحت الرعاية الأمريكية ـ وإن كان بصعوبة أكبر ـ للفصل على مرتفعات الجولان.

عملت اتفاقيتا الفصل ـ وهما أول نجاح للمفاوضات العربية الإسرائيلية منذ عام 1949ـ على تصفية النتائج الفورية لحرب 1973 ، إذ انسحبت إسرائيل من قناة السويس، وأعادت لسورية مدينة القنيطرة أكبر مدن هضبة الجولان، وبدخول الرئيس جيرالد فورد إلى مكتب الرئاسة، كانت ذيول هذه الحرب قد زالت وزال معها الدافع والمبرر لمواصلة المفاوضات. وأصبح المحرك الأساسي للشؤون الدبلوماسية في الشرق الأوسط هو تحقيق الأهداف القصوى للسلام نفسه.

صياغة استراتيجية جديدة

تسارعت جهودنا في بداية عمل إدارة الرئيس فورد لمواجهة تلك الأحجية: فالزعماء العرب ينادون ويتحدثون عن وحدتهم التي لا تتجزأ، لكن شكوكهم المتبادلة جعلت التعاون فيما بينهم مربكاً. وحيث إن إسرائيل رفضت النقاش حول العودة إلى حدود 1967 مع سورية عند هضبة الجولان، أو التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية حول الضفة الغربية، فإن محاولة التوصل إلى ما يسمى «الحل الشامل» ـ الذي يقتضي أن تغطي المفاوضات الجبهات والمحاور كافة سوف تضمن لها إما تجميد الأوضاع على حالها وإما الحرب.

استطاع أنور السادات، الزعيم العربي الذي تميز ببعد نظره، فهم هذه المعضلة وكان على استعداد للتقدم خطوات أكثر نحو ترتيب مسارٍ منفصل مع إسرائيل. كان متطيراً من إخوانه العرب، علاوة على ارتيابه الشديد، بشأن علاقتهم مع موسكو. وبالتالي لم يرغب بوضع الدبلوماسية المصرية تحت مجهر الدول العربية من جهة، ومن جهة أخرى لم يكن بعد على ثقةٍ من قدرة أمريكا على التحمل في حال جازف بفصل مساره.

تبنى السادات لأجل ذلك استراتيجية خبيثة ومبهمة بشكل استثنائي. فقد وفَّى العرب حقهم عندما كان يتكلم بشكل دائم وحماسة بالنيابة عن الفلسطينيين، وأصر علينا ودعانا للتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية، بالرغم من معرفته المسبقة وخلال محادثاتي معه أن ذلك لن يحدث لأن «منظمة التحرير»

متورطـة بالإرهاب متبنية في سياستها ما يدعى بتدمير إسرائيل. فقد تحدث السادات بشكل انفعالي عن أهمية تحقيق تقدم متزامن على جميع المسارات مع تحفظ وشرط جوهري: وهو إعطاؤنا ثلاثة أشهر حداً أقصى لإجبار إسرائيل على الانسحاب من عدة جبهات، رغم معرفته التامة باستحالة حدوث ذلك على أي جبهـة كانت، عدا الجبهة المصرية، وبالطبع فإن هذه الاستحالة كانت عذره للتحرك بشكل منفرد. طلب مني السادات إيجاد وسيلة لتحقيق ذلك من خلال بياناته المبهمة، فقد امتدح مراراً مهاراتي الدبلوماسية وبشكل علني، الأمر الذي، بالرغم من رغبتي باعتباره صادقاً، أعطاه عذراً آخر للتحرك بشكل أحادي عبر نقل عبء التحرك المنفرد، ووضعه على كاهلي.

بدا أن أسد سورية، الذي استبعدته إسرائيل من حل جزئي منفصل، كان يمتلك الرغبة الصادقة في حـل شامل، لأنه يدرك أن هذه هي فرصته الوحيـدة لتحرير الأراضي السورية كافة. وسوف يعطيه توحيد المفاوضـات علـى جميع المسارات القدرة على منـع واعتراض أي تحرك دبلوماسـي لأشقائه العرب، بل سيمكنه أيضاً من إجبارهم على أن يضغطوا معه في الاتجاه نفسه.

وبيـن مطرقة إصـرار الأسد على الحل الشامل، وسندان تفضيل السادات للتحرك في مسار منفصل، وقـع الملك حسيـن، وأصبح شخصـاً غريباً خارج اللعبـة ـ ليثبت أن الحياة ليست دائمـاً منصفة. فقد اصطدم مع منظمة التحرير الفلسطينية في العام 1970 عندما منع الفدائيين من مهاجمة الأراضي التي احتلتهـا إسرائيل انطلاقاً من التراب الأردني؛ وواصـل محادثاته السرية مع قادة إسرائيل والتي تجاوزت الخمسـة مئة ساعة دون جدوى؛ ولأنه لم يشارك في حرب 1973، فلم يكن لديه أي أسرى لمبادلتهم؛ وفي الوقت نفسه كان أضعف من أن يشعل حرباً بمفرده. وبالتالي كان الحافز ضعيفاً بالنسبة لإسرائيل لإجراء مفاوضـات مـع الحسين، حتى عندما كان واقعاً تحت تأثير بعض الـدول العربية الأخرى التي كانت ترعى منظمة التحرير الفلسطينية تارة عن اقتناع، وتارة أخرى من الخوف.

أصبـح قـادة عـدة دول عربيـة علـى مستـوى جيـد من المهـارة فـي التلاعـب بالضغـط علينا عبر الديموقراطيـات الصناعية التي كانت تتخوف من أزمة أخرى للطاقـة. فبعضهم تشدق باستنتاج مشؤوم يزعـم أن إسرائيـل لا يمكـن أن تتحمـل أي خسائـر أو ضربات موجعـة، كما ردد ذلك علـى مسامعي في مناسبـات عدة. لقـد استطاع في الحقيقـة تحديد نقطة ضعـف إسرائيل التي توجعها. ففـي الدول ذات التعـداد السكانـي القليل والتي تحرص بشكل استثنائي على حيـاة مواطنيها، يكفي إيقـاع عدد قليل من الإصابات لتوليد صدمة عميقة الأثر.

كانـت مقاربة «الحل الشامل» تمثل وجهة النظر الفكرية الأكثر إغراءً، والتي بالطبع تتمتع بدعم واسع في أوساط الخبرات الأكاديمية، وظلت حتى حرب 1973 الخيار المفضل لدى الإدارة الأمريكية. من ناحية أخرى فإن جمع جميع الأطراف في جنيف، في وقت صَعَّد معه السوفييت ومن معهم من العرب المتشددين

مـن مواقفهم بالرغـم من مقاومة السادات لذلك، سوف يؤدي إلى دمـج المطالب الخاصة كافة. وبوجود الجماعات المتطرفة التي كانت تضغط على العناصر المعتدلة، وبوجود الاتحاد السوفييتي الّذي كان بدون شـك يلعب دور محامي الدفاع عن الموقف العربي الجماعي (مع مساندة حلفائنا الأوروبيين واليابانيين) فإن النتيجة ستكون عزلنا مع حدوث جمود دبلوماسي أو حرب مؤكدة.

بالنسبـة لإسرائيل، وبغض النظر عن جرأة التبجح والتحدي للقيادة فـي حرب الكل ضد الكل، وهي الطريقـة التي تبناهـا كل السياسيين الإسرائيليين في التعامل مع المشكلات الداخلية، إلا أن إسرائيل لم تكن في موقع يسمح لها بقبول مفاوضات شاملة. فحتى ذلك التاريخ لم يكن هناك أي قائد إسرائيلي يقرُّ بقبـول حـدود 1967 على جميع الجبهات بأي شكل من الأشكال؛ أو علـى إرجاع البلدة القديمة في القدس للسيطرة العربية؛ أو بالتخلي عن المستوطنات التي تم إنشاؤها فوق الأراضي التي احتلتها إسرائيل لاحقاً ـ وكل ما يمكن أن يكون جزءاً من برنامج عربي مشترك.

لهـذه الأسباب جميعـاً اقترحت ـ وحظيت بتأييـد نيكسون أولاً ثم فورد ـ مـا أسميته نظرية «الخطوة بخطـوة»، والتي كنت قد أوضحتها لرئيـس الوزراء الإسرائيلي الجديد آنذاك إسحاق رابين، خلال زيارته الأولى للرئيس فورد في سبتمبر 1974، كما يلي:

> إن الخيـارات التـي أمامنا هي «إما» تسويـة شاملة وإما سلسلة مـن التسويات الجزئية. فالتسويـة الشاملة سـوف تضم القضايا الفاصلة كافة، وفي حال فشلها فإن ذلك سيؤدي إلى تولد ضغوط كبيرة. ثانياً، إن ذلك سيثير قضية حدود 1967 بشكل مبكر. ثالثاً، سيثير ذلـك قضية القدس والمهجرين الفلسطينيين على باقي القضايا.. لذلك فإنه (لكل هذه الأسباب) من الضروري وجود بديل يحول دون سيطرة القضية الفلسطينية علينا جميعاً، وتأخير انعقاد مؤتمر جنيف قدر المستطاع على أمل مصادقة على مشروع تم إعداده.

إذا كانـت السياسة الخارجية على قدر سهولـة دراستها في المنتديات الأكاديمية، فإن الأردن سيكون المرشح المنطقي للمرحلة القادمة. وقد كانت قيادة الملك حسين متعاونة بشكل لا غبار عليه، ومفاوضات إسرائيـل مـع الأردن كانت أفضل تكتيك لتجنب الضغوط نحو التفاوض مـع منظمة التحرير الفلسطينية، التـي كانت طبقاً لدستورها ملتزمة بتدميـر دولة إسرائيل. وإذا كان بالإمكان استدارج الأردن لمفاوضات حـول الضفة الغربية وإقناعه بتحمل مسؤولية جزء منها، فـإن قضية التمثيل الفلسطيني المتفجرة سيتم إزالتها من أجندة مؤتمر جنيف في حال انعقاده. هذا ما أبلغته للجنة العلاقات الدولية في مجلس الشيوخ في دورته التنفيذية المنعقدة في 31 مايو 1974:

> «إن الطريقـة المثلى للتعامل مـع المسألة الفلسطينية، ستكون باستـدارج الأردنيين إلى الضفة الغربية وبذلك ننقل الحوار... إلى حوار موَّحد بين الأردنيين والفلسطينيين».

في شهر يوليو، وقبيل شهر ونصف من استقالة نيكسون، أبلغت وزير الخارجية الإسرائيلي إيغال آلون، أنه لا خيار لإسرائيل بتجميد الوضع القائم في الضفة الغربية وتأجيل المفاوضات مع الأردن على أساس أنه جاهز في أي وقت لإجراء تلك المفاوضات لاحقاً. وإذا لم تتعامل إسرائيل مع الحسين الآن، فإن قائد منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات سيصبح المتحدث الرسمي المعترف به عن الضفة الغربية خلال عام.

وقد فصلت هذه المسألة لرابين خلال زيارته لواشنطن في سبتمبر 1974:

وفيما يخص الأردن، فإننا نؤيد توقع أن وجود دولة فلسطينية سيكون من أهدافها القضاء على كل من الأردن وإسرائيل، كما سيكون لها قدرة عالية على تعطيل وزعزعة التوازن الصعب في المنطقة. ثانياً، يمثل الفلسطينيون حالياً العناصر المسببة لهذا التعطيل، لذلك فإن الولايات المتحدة لا تملك الدافع لإبراز الفلسطينيين.

ولذلك فإن الطريق الأمثل في اعتقادنا للتعامل مع المسألة الفلسطينية هو الإلقاء بالمفاوضات في ملعب كل من إسرائيل والأردن. كان هذا ما قلناه علناً مرات عديدة. وكانت تلك سياستنا، بذلك فنظرنا للمفاوضات الأردنية على أنها أولوية هامة.

واجهت استراتيجية الأردن ــ أولاً عقبات هائلة، فالبرغم من كون الأردن أكثر جارات إسرائيل قابلية للتجاوب، إلا أنه أيضاً كما لوحظ كان الأضعف. وبما أن الملك حسين لم يكن في موقع يخوله ببدء حرب دون حلفاء، بالتالي فإن إسرائيل لن تستفيد من التقدم على المسار الأردني إلا في حالة وجود دعم من دول عربية أخرى. وفي صيف 1974 المشؤوم، كان القادة العرب في حالة انقسام شديد. فعندما رافق زيد الرفاعي ثم رئيس الوزراء الأردني الملك حسين في زيارته لواشنطن في منتصف أغسطس في 1974 بمثابة من موكب استفتاحي للقادة العرب، وصف ما حدث على أنه محاولة لتنسيق وتوجيه المواقف العربية:

لقد قررنا أن تلتقي كل من مصر وسورية والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية في جنيف لتنسيق استراتيجية مشتركة، لكن منظمة التحرير لن تكون هناك لأن الأردن سيكون حاضراً، سورية أيضاً لن تحضر لأن فهمي (وزير خارجية مصر) سيكون حاضراً، ولن يلتقوا في القاهرة. إذن بقيت مصر والمنظمة والأردن، والآن نحن أيضاً لن نذهب.

علاوة على ذلك، ساندت بعض الدول العربية الأردن بصفته محاوراً رئيسياً خدعةً للحصول على أكبر جزء ممكن من الضفة الغربية من إسرائيل، مما سيمكنهم بعد ذلك من مساندة إرجاع هذه الأراضي إلى منظمة التحرير الفلسطينية، إلا أن إسرائيل لم يكن لديها الدافع لتشجيع مفاوضات يكون الرابح الأكبر فيها منظمة التحرير الفلسطينية.

هـذه العقبات كان يمكن تجاوزها لو أن تحليل الحسيـن لضرورات السادات كان أقرب. فقد دافع عن أهميـة استراتيجية الأردن ـ أولاً على أرضية حاجة السادات «للغطاء الأردني» من أجل خطواته التالية في سينـاء، والتي بـدا واضحاً أنه كان مصراً علـى تنفيذها. في ذلك الوقت كانـت استراتيجيتنا تعتمد على السادات بوصفه مفتاحاً للسلام في الشرق الأوسط؛ فقد كان رغم كل شيء أكثر الزعماء العرب اعتدالاً، كمـا أنـه قائد أكبر الدول فـي المنطقة، ولذلك كنا نميـل لتأييد تحليل الحسين. ولكـن، كما تبين لاحقاً، كان للسـادات وجهـات نظر مختلفـة. إذ لم يكن السادات مولعـاً بالملوك، ولم يحب يومـاً الملك حسين، ولـم تكـن لديه القناعة بأن الملك حسين قادر على توفير الغطاء الضـروري له للقيام بخطوات منفصلة. وفـي النهاية، فإن التسويـف والممطالة الإسرائيلية ومعارضة السادات كانـت كفيلة بالقضاء على الخيار الأردني.

الخيار الأردني

وصـل إيغان آلون وزير الخارجيـة الإسرائيلي إلى واشنطن في 30 يوليـو 1974، في أصعب أيام إدارة نيكسـون. كان آلـون صديقاً شخصياً لي منذ عام 1957 عندما حضر منتدى هارفورد الدولي، والذي كنت قد أدرته باعتباره برنامجاً صيفياً من شهرين للقادة الأجانب الشباب الواعدين. فقد قمنا معاً برحلة عبر نيـو إينغلاند أظهر فيهـا آلون شجاعة أسطورية عندما سمح لي بالقيـادة. كان آلون أول قيادي إسرائيلي ألتقـي به، ولقد روى لـي حكايات بدت كالقصص الرومانسية خلال حرب 1948، حيث تحدث عن الجيش الكبيـر المتداعـي والمسلح بأسلحة مسروقة من مخلفات الدول الأوروبية، وكيف استطاع أن يهزم الجيش المصري ذا التدريب والتسليح الإنكليزي العالي، ولم يكن يتحدث عن ذلك بتبجح، بل بتواضع من شارك المعركة وبما يشبه المعجزة.

زرت آلـون عـام 1961 في كيبوتز جينوسار على شواطئ بحر الجليـل على عتبة هضبة الجولان، حيث كان يعيش في شقة صغيرة بسيطة للغاية. لقد تعلمنا من البيئة المحيطة بنا أن المعجزات لا تحدث للذين ينتظرونها بسلبية، وقد انتزع آلون ومن معه من جيله كل إنش من التراب رغم الظروف المعادية المحيطة بهم بجهدهم ودمهم ففي كثير من الأحيان. في عام 1961، وفي أواسط ما يوصف بفترة السلام، كان ما يزال هناك ملاجئ ضد القنابل في جميع أنحاء جينوسار لحماية المستوطنين من القصف المتكرر الذي كان ينصب عليهم من مرتفعات الجولان السورية والتي كانت بيد سورية آنذاك.

حتـى بعـد ترقيتـه إدارياً، ظل جـزء من آلون ذلـك الطفل المعجزة، الـذي يناقش الآن أمـوراً كبيرة كالطائـرات عاليـة الأداء والفتوحـات الإسرائيلية. إلا أن ذلـك على أي حال لم يجعلـه بالضرورة شريكاً مريحاً في المفاوضات. كان آلون يتشرب نوعاً خاصاً من انفصام الشخصية الخاص بالجيل الأول للقادة الإسرائيليين. فقد كان شاهداً على عدد من الخسائر الإسرائيلية التي كانت تمنعه من تبني شعار إمكانية

بنـاء الثقة عبـر التخلي عن الحواجـز الإقليمية. إلا أن ذلـك كان تحديداً ما، تدور حولـه عملية السلام: إحداث توازن بين الشرعية والأمن، وبين الثقة والأراضي. كان لدى آلون خصال محببة ولطيفة استثنائية؛ ويمكـن وصفـه بأي شـيء إلا بالتعنت. لقد أدرك أهمية عمليـة السلام فكرياً، ولكنـه تراجع عن التطبيق العملي.

حـددت هذه الازدواجية الاختـلاف الجوهري بين إسرائيـل والولايات المتحـدة الأمريكية في كيفية رصـد عملية السلام في الشرق الأوسط ـ وما يـزال هذا الاختلاف مستمراً إلى يومنا هذا. فبالنسبة لنا، نظرية «الخطوة بخطوة» كانت طريقة لإبقاء المبادرة السياسية في يد الأمريكيين لمواجهة ائتلاف العرب المتطرفين مـع الضغوط الشيوعية، ولإحباط التحركات السوفيتية، ولتأجيـل أكثر القضايا جدلاً وإيلاماً للحظات المناسبة. رحب قادة إسرائيل بهذه الفوائد، لكنهم عاطفياً ـ أو ضمنياً ـ لم يكونوا على استعداد لتقبل القرارات التي قد تفرضها عليهم عملية السلام. لو تم حقنهم بمصل الصدق في يوليو 1974 لعبّروا من دون شك عن تطلعهم العميق للتحرر من الضغوطا كافة ـ بغض النظر عن الهدف بعيد المدى للسلام المرغوب فيه.

أصبـح إسحـاق رابين رئيساً للـوزراء خلفاً للأسطورة غولـدا مائير. إذ تم اختيـاره بصفته زعيماً لحـزب العمال بأغلبية ضئيلة على منافسه شمعـون بيريز، الذي كان وزيراً للدفاع في إدارته، وقد حكم بأغلبيـة برلمانية بفـارق صوت واحد في نهاية ما يمكـن وصفه بأكثر سنة صادمة فـي تاريخ إسرائيل. ففـي الأشهر التسعة الأخيرة كانـت إسرائيل ضحية لهجوم مباغت تكبدت فيـه ما يقارب 2.800 قتيل، إي مـا يعادل 200.000 إصابة أمريكية. بالإضافة إلى كونها ضحية لهجمات الراديكاليين الفلسطينيين الإرهابية. وفي غضون شهر ـ قتل في معالوت في 25 أيار (في منتصف جولتي المكوكية) 37 إسرائيلياً (معظمهـم مـن الأطفال). في حيـن كانت إسرائيل تفاوض من أجل اتفاقيتين لفـك الاشتباك في كل منهمـا وقـد تراجعت عـن خطوط وقف إطلاق النـار السابقـة. والآن بعد ثلاثة أشهر مـن المفاوضات حـول مرتفعـات الجولان المرهقة، طلب من إسرائيل أن تتراجع إلى خطـوط ما قبل وقف إطلاق النار، وأن تقـوم بانسحابـات أخرى في الضفة الغربيـة، المنطقة الأكثر حساسية جغرافيـاً ونفسياً ـ مما يثر جـدلاً داخليـاً حول ما إذا كان القـادة الإسرائيليون لهم الحق في الانسحاب مـن أراضٍ يعتبرها اليهود المحافظون أراضي مقدسة.

في أشد اللحظات رعباً، كان مجلس الوزراء الإسرائيلي يجد نفسه مضطراً إلى الانسحاب نحو حدود 1967 . ومـا بدا خطوات صغيرة بالنسبة للأمريكييـن كان كبيراً بالنسبة لهم بنظر الإسرائيلين ولا سيما أن الانسحـاب سيكـون من بقعة عرضها 50 ميلاً فقط. وقد أثار رابين هذا في 11 أيلول 1974، عندما كنا نتناقش حول الخيار الأردني معه:

كيسنجـر: أولاً أنـا أتفهم مخاوف إسرائيل مـن أن السياسة الإسرائيلية التـي أنتهجها قد تبدو مثل كتكتيك سلامي.

رابين: يمكن أن تنشأ عن واقع تكتيكات السلام.

كيسنجر: لا يمكن فعل الاثنين. ليس لدي جواب عن ذلك إلا من خلال علاقة الثقة..

لم يكن ثمة زعيم إسرائيلي متعاطف مع السلام بشكل تجريدي مثل آلون. ففي أثناء الأربعة والثلاثين يومـاً من الزيارات المكوكية إلى سورية، رافقني آلون الذي كان آنذاك نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للعمل، أكثـر مـن مرة في الطريق مـن القدس إلى مطار بن غوريـون، وفي بعض حالات التعثـر كان يرفع صوته بالموافقة والثقة بقدرتي على إيجاد حل. ومع هذا فإن آلون لم يزودني بأي إرشاد حول تحقيق هذه الرغبة الملحـة. كان يطلعنـي فقط على إيمانه غيـر المحدود بمستقبـل إسرائيل. إذ لم يكن موقـف آلون عملياً مختلفـاً عمـا كان عليه في فنـدق الملك داود في القدس حيـث أعلمني أنه يصلي كل ليلـة من أجل نجاح المفاوضات. وعندما سألته: أي جزء من الأراضي التي غزيت عام 1973 (الأراضي التي غزيت عام 1967 كانت خارج قوس) يمكن أن تعاد إلى سورية، شعر بالغضب وقال: «أراضٍ للسوريين؟ لا بد أنك مجنون».

وفـي أثناء زيـارة آلون إلى واشنطن دعوتـه إلى كامب ديفيد مـع السفير الإسرائيلـي سمحا دينيتز، وبرينت سكوكروفت ومساعدي بيتر رودمان إلى أمسية للمناقشة على العشاء.

كان رسالـة آلون معقدة بقدر ما كانت عاطفية. فقـد قال: إن رابين قد دخل رئاسة الحكومة من وقت قريـب، وطلـب منه أن يطلب مني تجنـب أي توجه قد يتطلب انتخابات إسرائيليـة فورية. وكان ذلك يعني أنـه لـم يكن يريد أن يباشر بالخيـار الأردني، لأنه وعد بإخضاع أي تغييـرات جغرافية في الضفة الغربية لأصوات الناخبين في إسرائيل.

The West Bank
1974–1976
LEBANON
Area of Separation
Quneitra
SYRIA
GOLAN
HEIGHTS
Mediterranean
Sea
Haifa
Lake
Tiberias
ISRAEL
Nablus
Tel Aviv
WEST
BANK
JORDAN
Amman
Jericho
Jerusalem
Bethlehem
GAZA
STRIP
Gaza
Dead
Sea
EGYPT
(SINAI)
0 20 miles
0 20 kilometers

وبالنيابة عن نفسه، كان آلون يفضل انسحاباً إسرائيلياً من جزء من الضفة الغربية. وقد وضع خطة متخيلة لتحقيق ذلك. لما كانت الأراضي كلها ما بين نهر الأردن والبحر عمقها 50 ميلاً فقط، فإن الانسحاب بخط مستقيم سوف يحرم إسرائيل من العمق الاستراتيجي الذي تحتاجه للدفاع عن السهل الساحلي، حيث يقطن معظم سكانها والذي يحميها من الجيوش العربية التي يمكن أن تدخل الأردن بعد وفاة الحسين. ووفقاً لخطة آلون ينبغي أن تحافظ إسرائيل على خط من المخافر الأمامية على طول نهر الأردن وتعطي الأردن ممراً ضيقاً حول أريحا وسط الضفة الغربية، حيث تعيش الكتلة الكبرى (ما يقارب 98%) من السكان العرب (انظر الخريطة ص363). وفي المناطق المعادة إلى إشراف العرب ينبغي على إسرائيل أن تتخلى عن الإدارة اليومية ومهمات الشرطة للأردن مع الاحتفاظ بالمسؤولية عن الأمن بكامله. وبعد عشرين سنة أصبح ذلك المفهوم أساس اتفاقيات أوسلو.

المشكلة الأساسية في أن تصبح «خطة آلون» مشهورة بسرعة في حين أن زملاءه ضمن «الترويكا» كانوا يسيرون في استراتيجية شاملة لا تتوافق مع خطته. كان رابين يعتقد أن الاتفاق مع مصر فحسب يمكن أن يعطي إسرائيل مساحة التنفس التي تريدها. وكان شيمون بيريز ـ وزير الدفاع وفيما بعد البارز في حزب العمل ـ يرى أن هذه النقطة تدل على موقف صارم وتتعارض مع أي اتفاقية مؤقتة. كان بيريز يتحدث عن حل شامل.

كان مجلس الوزراء الإسرائيلي متفقاً على عدم منح آلون أي تأييد رسمي، وكل ما قدمه لي من اقتراحات كانت مجرد اقتراحات ذات طابع «استطلاعي» أو «شخصي» لأنهما كانا عرضة للرفض. ومع هذا اتخذت الحكومة قراراً واحداً وقد. ناقش آلون أنه على الجبهة الأردنية لا يوجد حيّز للانسحاب الجزئي، وأن أي انسحاب جزئي أو «تراجع سيكون خطاً دائماً. وهذا ما حكم على حواري مع آلون في كامب ديفيد، لأن الملك حسين رفض منذ البداية تسوية دائمة تقوم على مفهوم الإدارة الأردنية تحت الاحتلال الإسرائيلي العسكري. حدث هذا في مباحثات سرية مع الإسرئيليين، حيث أعلمنا بذلك كل جانب ـ ربما الأردن بشكل أوضح من إسرائيل.

ومن أجل تسهيل المفاوضات العربية الإسرائيلية ألحقت الولايات المتحدة كل اتفاقية لفك الاشتباك «بمذكرة تفاهم» مع إسرائيل، توضح المواقف الأمريكية نحو مختلف الاحتمالات. وبعد فك الارتباط مع سورية وافقت الولايات المتحدة بتعاطف على دراسة حاجات إسرائيل الإضافية الأمنية، ولا سيما بالنسبة إلى الجيل القادم من الطائرات المتقدمة.

في الحالات السابقة هذه البيانات كانت تعتبر تعبيراً عن الإيمان بضرورة المتابعة الفنية للمفاوضات. وقد فسرها مجلس الوزراء الإسرائيلي الجديد على أنها التزام قانوني بطلب ضخم مدته عشر سنوات بكلفة 40 مليار دولار (بأسعار الدولار عام 1974) يقدم إلى الكونغرس لصالح إسرائيل.

لـم يجر مثل هذا الالتزام العسكري طويل المدى مـن قبل أي إدارة من قبل لصالح دولة أجنبيةَ. وقد رفضـ نيكسـون في شهـره الأخير في السلطـة أن يجري حتى مجـرد دراسة للطلـب الإسرائيلي. وعندما جـادل آلون أن قائمتـه الضخمة بإرسال الأسلحة هي شرط مسبق لاستمـرار عملية السلام، فإن نيكسون المضطـرب كثيراً، وقبل ثلاثة أيـام من مغادرته الرئاسة، أمر بوقف العملية بكاملها. أما الرئيس الجديد فقد أعاد هذا الموضوع للنقاش.

وهكذا أصبح طلب إسرائيل بالمساعدة أول قرار حول الشرق الأوسط يوضع أمام فورد. ورغم أن فورد مايـزال جديـداً على تعقيدات دبلوماسية الشرق الأوسط، فقد كان على اطلاع جيد على تعقيدات عمليات الميزانية في الكونغرس. وبعد 24 ساعة من أداء فورد اليمين باستلام السلطة. استغل وزير الدفاع جيمس شليسينغـر أول اجتماع لمجلس الأمـن القومي في عهد الرئاسة الجديدة كي يطلب التوجيهات بشأن طلب اسرائيل في المساعدة.

سار الاجتماع على نحو سيء. فقد كان فورد غير مطلع على الأساليب الإسرائيلية في التفاوض، والتي ترفضـ التأكيد الإنجيلي على الصبر، وازدادت ثورتـه عندما اكتشف أن الطلب الإسرائيلي سوف يخفض الاحتياطات الأمريكية العسكرية وبالتالي سيخفض من استعداد القوات المسلحة الأمريكية:

شليسينغـر: الحـد المطلوب لتزويدهـم ببعض الأسلحة التـي يطلبونها، يوجب سحبهـا من القوات الأمريكية مما يجعل هذه القوات أقل استعداداً.

فورد: هل يفهمون الوضع على هذه الصورة؟.

شليسينغر: نعم يا سيدي، ولكنهم يعتقدون أن حاجاتهم لها الأولوية.

فورد: ذلك بالتأكيد موقف غير أناني.

رغم هذه الملاحظة اللاذعة قرر فورد بعد يومين ألا يبدأ رئاسته بمشاحنة مع صديقة قديمة. ووافق على دراسـة مجلس الأمن القومي التي رفضها نيكسون، وبذا أطلق التسلح الإسرائيلي إلى الجهاز البيروقراطي. وكانت هذه أيضاً مناورة ماهرة لتأخير أي قرار فوري، يظهر أن فورد يعرف طريقه في واشنطن:

أعتقـد أنـه ينبغـي أن نستوقفهـم حتى نـرى موقفهم. فهذه هـي البطاقـة الفارغة التي نملكها؛ ولا أعتقد أن الكونغرس سيقبل بسرعة مثل هذا الطلب ولاسيما في ظل التضخم الحالي.

الخيار المصري

وصل وزير الخارجية المصري إسماعيل فهمي إلى واشنطن يوم الأحد 11 آب قبل يومين من استلام فـورد السلطة وقبل يومين مـن استئناف تركيا لعملياتهـا العسكرية في قبرص (انظـر الفصل السابع).

وكنـت قد تعرفـت على فهمي فـي 29 ت1، 1973، عندما جاء إلى واشنطن ليحل محـل مستشار السادات لشؤون الأمن، محمد حافظ إسماعيل، بوصفته محاوراً.

أعلن آنذاك: «الرئيس أرسلني كي أتعرف عليك، وكي أعلمه عنك وأحضر لزيارتك». كانت تلك طريقة فهمـي فـي القول: إنه جاء ـ غير مدعو ـ لا للتفاوض بل ليتعرف علي ـ وقد أعطاني فرصة فسيحة للكلام، ويعود ذلك إلى أنه كان يعرف ألا خيار آخر أمامه.

فهمـي الواعي الـذي يتحلى بالكياسة والذكاء ـ الرسمي المتخصص ـــ كان يعلم جيداً حقيقة مهمته الأساسية وهي إبعاد الانشقاق السيكولوجي بين مصر والغرب، ولا سيما الولايات المتحدة. وفي المراحل الأولـى من عـدم وجود عملية سلام، كان هذا يعني أنه كان يقصدني بصفتي وسيطاً. أما المسألة الملحة في ذلك اللقاء الأول فقد كانت مصير الجيش المصري الثالث في سيناء، الذي وقع في مصيدة إسرائيلية عندمـا قطع شـارون خط الإمداد الأخير (حتى بعـد أن أعلنت الأمم المتحدة وقـف إطلاق النار ودخوله موضع التنفيذ). تصرف فهمي كما لو أن مساعدتي في إخراج ذلك الجيش من المصيدة التي لا يستطيع أن يخـرج منهـا بمنزلة هبة خاصة تُسبغ علي من قبـل رئيسه، الذي لم أقابله بعـد. وأكد فهمي أن مصر والولايات المتحدة ستكونان شريكتين في دبلوماسية الشرق الأوسط، رغم أن بلدينا لم يستأنفا العلاقات الدبلوماسيـة بينهمـا التي قطعهـا عبد الناصر في أعقاب حـرب الشرق الأوسط عـام 1967 . كان فهمي المهـذب أستاذاً في التلميـح، فقد إذ كان يفتتح الحديث برفعي إلى مستـوى الدبلوماسي المقتدر، يشرح لـي الحفـظ في التأكيد على مصالح أمريكا في إقامة علاقات طيبـة مع مصر. فورد الذي قابل كثيراً من المفاوضيـن، أصغـى إلى فهمـي بدهشة، ثم بنوع من الترحيب يمكن أن يحتفـظ به المرء من أجل عرض مسرحي أو رياضي.

كان فهمـي يتهـم أحياناً بين زملائه العرب بأنه مـوالٍ للغرب. وكان الزعمـاء السوريون بشكل خاص يتساءلـون بتهكم ما إذا كنت سأدعو فهمي إلى اجتمـاع وزراء خارجية الناتو المقبل. وقد استخدموا ميله الواضح نحو نمط الحياة الغربية ليثروا حوله الجدل. ذلك أن فهمي كان قبل كل شيء وطنياً مصرياً محباً لبلاده، وقد شارك السادات في وجهة نظره بأن المساعدة الدبلوماسية الأمريكية لا يمكن الاستغناء عنها لأنـه لا توجـد دولة عربية تستطيع أن تتقدم نحو السلام بمفردهـا ولأن المحاولات لتشكيل جبهة موحدة، كانت تتعثر تحت وطأة الفرداوية العربية، والتنافس المتأصل، وخصوصية المزاج.

اعتمد فهمي شأنه شأن زملائه العرب على الالتفاف كشاشة لإخفاء السرية. ولكنه كان يختلف عنهم فـي موهبـة تحويل فن الخطابة إلى تكتيـكات دبلوماسية. ومن خلال مناورته بعواطـف العرب، والشكوك بالإسرائيليين، وثقتـه غير الحقة بالسوفييت، ونيته الطيبة نحو الأمريكيين استطاع أن يقترب أكثر نحو اتفاقية منفصلة.

صيف عام 1974 كان تجربة لحماسة فهمي. فبينما كان يسعى إلى الحصول على اتفاقية منفردة، كان السادات (وفهمي) بحاجة إلى أن يحافظا على الوحدة العربية ظاهرياً، حتى يتأكدا تماماً أن اتفاقية مقبولة في سيناء باتت في اليد. وكانت الولايات المتحدة تفضل أن تكون الخطوة التالية مع الأردن، والتي كان السادات وفهمي مقتنعين أنها ستوفر اتفاقية مصرية لعدة شهور، أولاً في أثناء سريان الانتخابات الإسرائيلية الحتمية ثم لفترة غير محددة، في الوقت الذي ستظهر فيه الخلافات بين الأردن ومنظمة التحرير حول من سيمثل الفلسطينيين. والزعماء المصريون لم يكن في نيتهم إضاعة أملهم في استعادة جزء من سيناء على الأقل وسط النقاش الذي لا قرار له حول الضفة الغربية. وكان فهمي في الوقت نفسه، الذي لم يكن في وضع مناسب للتخلص من السوفييت لمصر، يعي جيداً الأهمية القصوى التي يحتفظ بها وحسن النية تجاه الولايات المتحدة.

ضحى فهمي بكل الخيارات اللامعقولة من أجل اتفاقية مصرية ـ إسرائيلية منفردة. فطبيعته المرحة كان لها تأثيرها لدى فورد إذ حجبت التهديدات غير المباشرة التي كان يضعها نصب عينيه كالطبيب الذي يواجه تشخيصاً غير مناسب ــ وكأن الأحداث تحت تصرفه. وفي حال غياب تقدم مباشر ما في سيناء ــ لنقل حتى شهر ت2ــ سوف يدعي أن الشرق الأوسط ينتفض ثانية، ربما بتحفيز من سورية (لم يشرح فهمي لماذا ستثير اهتمام سورية وانتفاضها اتفاقية مصرية إسرائيلية منفردة كان الأسد يعارضها). أعلمنا فهمي أنه خطط لقبول دعوة لزيارة موسكو، قبل وقت غير طويل، بالرغم من أن لا نية لديه لعقد أي «صفقة» هناك ـ مما كان يعني بالطبع أن لديه الإمكانية لأن يفعل ذلك على وجه الدقة. وقد رحب برغبتنا لتحقيق تقدم على الجبهة الفلسطينية، ولكنه أصر على أن هذا يتطلب اتصالات أمريكية مباشرة مع «منظمة التحرير» التي تعيق بالطبع الخيار الأردني، وسترفض بالتأكيد من قبل إسرائيل.

ضحك فهمي من الاقتراح القائل؛ إن مصر تحتاج تغطية أردنية من أجل دبلوماسيتها المستقلة. كان العكس، بالأحرى، هو الصحيح:

> الأردن لا يستطيع أن يتحرك دون تأييد قوي من الرئيس السادات. ولا يوجد قائد عربي يستطيع أن يدعم الملك حسين. كما قلت لك، إنه رجل طيب ولكن ماحدث في «أيلول الأسود» (عندما هزم الجيش الأردني «المنظمة» في الأردن في أيلول 1970).. جعله لا يستطيع أن يعمل بدون تأييد القاهرة.

نتج عن التلاطم بين بلاغة فهمي وتنظيراته توصية بسياسة واحدة واضحة لا لبس فيها وهي: أن مصر لن تنتظر المفاوضات الأردنية. «يستحيل دعم أي فك ارتباط أردني إذا لم يعزز بانسحاب على الجبهة المصرية» (أي انسحاب إسرائيل من الجبهة المصرية). ولمَّح فهمي في بعض الأحيان إلى إمكانية دخول السادات في مفاوضات تسير بشكل

متـواز مـع الأردن، لكن ذلـك كان من قبيل تهدئـة إصرارنا غير المفهـوم بالتركيز على المبـادرة الأردنيـة أكثر من اعتمادنـا خيار سياسة جديـة. ولكن للحقيقـة، فإن تزامن المفاوضـات على مساري الضفـة الغربية وسيناء، كان أكبر من قـدرة التحمل العاطفية لـكل من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. وقد كانت زيارة فهمي في جوهرها تعلن أن انبثـاق معاهدة منفصلة إسرائيلية مصرية ستكون الخطوة التالية الأكثر ترجيحاً في مسيرة عملية السلام.

الملك حسين وعملية السلام

بعـد يومين من مغادرة فهمي في 16 أغسطـس/ آب ـ أي بعد تولي فورد منصبه بأسبوع واحد ـ وصل الملـك حسين إلى واشنطن، ليتتبع الخيار الأردني الذي كانـت إسرائيل ومصر تقاومانه بسذاجة وبشكل صريـح. وكالعادة، فإن نزاهة وكياسة الملك كانت تخفي وراءها إصراراً حديدياً على حماية العرش وعلى صون كرامة شعبه.

رافـق الملـك حسين رئيـس وزرائه زيـد الرفاعي، الذي سبقه فـي زيارة استطلاعيـة موجزة في 16 أغسطـس ـ أي قبل 48 ساعة من إعلان نيكسون استقالته. لم تكن الدبلوماسية في الشرق الأوسط شغلنا الشاغـل في تلك الساعات المحمومة، وكانت النتيجـة أن كان الرفاعي الزائر الوحيد من الشرق الأوسط الذي لم أستقبله في المطار ـ وهذا تجاهل على الرغم من كونه مبرراً ومفهوماً، إلا أن ذلك ألقى بظلاله على العلاقة بيننا لفترة من الزمن.

لم تكن أهمية الرفاعي ناتجة عن مركزه الوزاري، الذي كان مؤقتاً، بل بسبب علاقته الوثيقة بالملك، التـي كانت علاقـة دائمة. كان الرفاعي عضواً فـي دائرة ضيقة من المؤتمنين الذيـن يشعر معهم الملك بالانفـراج، وكان يتنـاوب في الوزارة وخارجها تبعـاً لمتطلبات الوضع الأردني غيـر المستقر، وكلما دعت الحاجـة للحفاظ علـى العرش والأسرة المالكة. وبغض النظر عن مناورات الملـك حسين الحاذقة التي تظهـر فـي متاهة السياسات العربيـة الداخلية، إلا أنه لم يكن متشائماً أو مشـككاً، وكانت لديه ثقة كبيرة بالولايات المتحدة الأمريكية من دون أن يشرد بعيداً عن النقطة التي قد تهدد شبكة الأمان الأمريكية التي تخصـه.[❖] كان الرفاعي يجد نفسه في الحكومة عندما يعتبر الملك ذلك ضماناً لمواجهة أشقائه العرب. وعندمـا كانت رياح التطرف تهـب بشكل قوي وبغيض، يتم استدعاء بعض المساعدين من بطانة الحسين للظهور على الساحة ـ مع أن الرفاعي لم يكن يختفي بشكل كامل من الدائرة الداخلية.

(❖) المـرة الوحيـدة التـي اقترب فيها الملك حسين منها كانـت أثناء حرب الخليج عام 1991، عندما رفض الانضمـام إلى التحالف المعادي لصـدام، رغـم أنتـي ناقشته أن بقـاء عرشه هو الخدمة الأكثـر أهمية التي يستطيع الحسيـن تقديمها لاستقرار الشـرق الأوسط في تلك الأزمة.

بـل كان الرفاعي مناسبـاً للعب دوره، إذ كان مراوغاً وعلى درجة عالية مـن الذكاء، كما كان مفاوضاً صلباً خفَّفَ حس الدعابة الخبيث لديه من حرارة ومهارة أسلوبه في الدفاع عن مصالح بلده وعن الأسرة الملكيـة الهاشمية. من بين كل المحاورين العرب، كان الرفاعي أقلهم ميلاً للرومانسية التي كانت تتسبب أحياناً بدفع السادات لتحويل الواقع إلى إيقاع قصيدة ملحمية.

كان لـدى الرفاعي تصور لتسويـة فاصلة وجدت لها صدى في إسرائيل. فقـد عرض الرفاعي القبول بانسحـاب إسرائيلي متواضع على خط مستقيم يبلـغ 10 كيلو مترات (أي تقريباً 6 أميال) من نهر الأردن علـى أرضيـة أن أي تقـدم أردني سيكون قادراً علـى الوصول إلى مرتفعات (جوديـن). وكان على ثقة بأن «الإسرائيليين لا يتخلون عن قمـم المرتفعات». وبما أنه تم رفض الانسحاب على خط مستقيم على طول نهر الأردن من قبل إسرائيل، عرض الرفاعي اختبار خطة آلون شريطة أن تنفذ في سياق اتفاق زمني وأن تنسحب القوات العسكرية بالكامل من الأراضي الأردنية.

تبين لاحقاً أنه قد أخطأ في تقدير وضعه التفاوضي. فالرفاعي كان مقتنعاً بأن الخيار الأردني واقعي ببساطـة لأنـه لا يمكن للسادات أن يعادي العـرب بقيامه بعقد اتفاق منفصل. لذا فقـد حث الرفاعي إما عقـد اتفاق أردني ـ إسرائيلي وإما على مفاوضـات متزامنة بين إسرائيل ومصر من جهة، وبين إسرائيل والأردن من جهة أخرى.

وبهذه المعنويات أخبر الملك حسين الرئيس فورد بالتالي:

> نود أن نعرف يا سيدي أين نقف الآن؟! فإذا كنا غير مدرجين في قائمة المفاوضات الحالية، فإننا مستعدون للعودة إلى منظمة التحرير الفلسطينية والاعتماد عليها لحل مشكلتنا.
>
> وقـد زاد الرفاعي على قول الملك بقوله «لا يهم إن تم استغلالنا، ولكننا في النهاية نريد حصة من الغنيمة». وقد اقترح الحسين أنه، بعد عقد اتفاق حول الضفة الغربية سيعرض علـى السـكان إجراء استفتـاء عام تحت إشراف جهـات غير عربية مـن الأمم المتحدة ليختـاروا بملء إرادتهم بيـن الانضمام إلى الأردن أو السعي للحصول على الحكم الذاتي تحت لواء اتحاد كونفدرالي مع الأردن.

لـو أننـا كنا في مركز يسمح لنا بالسير وراء العواطف عند تقرير سياساتنا، لكنا أنا وفورد اتفقنا منذ زمـن. ولكننا لسوء الحظ، تعلمنا ما فيه الكفاية من اتصالاتنا السابقة «بإخوة» الحسين العرب كي ندرك أننا لم نكن في موضع يخولنا بالقيام بمفاوضات منفصلة مع الأردن.

وأفضل ما كان بإمكاننا عمله، ولو عن غير قناعة فعلية، هو وعدنا بالتعمق في ما أشار إليه فهمي بأن خوض مفاوضات متزامنة في الوقت نفسه على الجبهتين، يمكن أن ينفذ أو على الأقل قد يتم البدء بإجراء مفاوضات مع الأردن بعد بدئها مع مصر بفترة وجيزة.

زائران عربيان آخران: سورية والمملكة العربية السعودية

كان على جدول الأعمال وزيرا خارجية دولتين عربيتين أخران ينبغي الاستماع إليهما قبل أن ينخرط فورد في تعقيدات الجانب العربي وأهوائه بصورة كاملة. إذ وصل وزير خارجية سورية عبد الحليم خدام يوم الأربعاء في الحادي والعشرين من شهر آب، كما وصل عمر السقاف من المملكة العربية السعودية يوم الأربعاء في 28 آب.

كان خدام قد استقبلني مرحباً في المطار بمناسبة زيارتي الأولى لسورية في شهر كانون الأول عام 1973، وسرعان ما أخبرني أن سورية غير معنية بأي تسوية جزئية وأنها ستحكم على تسوية شاملة من حيث إنها تضمن استعادة حقوق الفلسطينيين. لم يحدد خدام هذه الحقوق، ولم يعطني انطباعاً بأن بقاء إسرائيل يحظى بدرجة مهمة في أولوياته. وعكست تقارير الصحف السورية حول زيارتي هذا الموقف. وفي زيارة تالية لدمشق متجهاً إليها من تل أبيب أشارت وسائل الإعلام السورية إلى أن وزير الخارجية الأمريكي قد جاء من «المناطق المحتلة».

سرعان ما ميّز وزير الخارجية السورية موقفه عن موقف فهمي، بأن المواطنين في سورية أقل جنوحاً إلى المصالحة من العسكريين، وعندما تعرفت إلى الأسد تأكدت أن هذه الإشارة كانت طريقة خدام في تحذيري بأن أي تنازلات تقدم فستكون بأمر من الأسد.

في الأشهر التالية رأيت كثيراً من هؤلاء المتحمسين قومياً. كان خدام لامع الذكاء ويتمتع بحس فكاهة ساخر. وخلال زيارات مكوكية استغرقت 34 يوماً، كنا نركب السيارة معاً من مطار دمشق وإليه، وقد جلسنا معاً في لقاءات لا تنتهي بينما كانت كلٌ من سورية وإسرائيل تتماحكان للوصول إلى الاتفاقية السورية ــ الإسرائيلية الوحيدة التي ما تزال باقية حتى كتابة هذه السطور، ولما لم يكن خدام آنذاك ضمن دائرة الأسد الداخلية، فقد كان لا يُدعى إلا بعد أن أكون قد أجريت مناقشة خاصة مع رئيسه، تليها جلسة مع قادة سورية العسكريين. ولكنه حينما كان يحضر كانت ملاحظاته فعالة تدل على مقدرة حرفية، كما أن أسلوبه التفاوضي متماسك بقوة.

على أن خدام، خلال زياراتي المكوكية، كان يتحرك بالتدريج، إن لم يكن بنفور، نحو القبول بنوع من التسوية السلمية أو نحو دبلوماسية تقوم على القبول من دون إسرائيل إلا إذا كان الباعث الخفي احتمالاً أنه إذا مال ميزان القوى نحو الجانب العربي، فإن سورية ستحتفظ بخيار تصفية الحسابات. ولكن طالما أن هذا الانقلاب ما يزال وهماً فقد كان وزير الخارجية يقوم بدوره الدبلوماسي بأسلوبه المعارض.

عندما زار خدام واشنطن كان يعرف جيداً من الصحافة الإسرائيلية أن إسرائيل لن تبحث في انسحاب جزئي آخر من مرتفعات الجولان، وأنه حتى في حالة تسوية نهائية فإنها ستقترح الاحتفاظ بجزء من هذه المنطقة الاستراتيجية. وإذا استمرت إسرائيل في هذه المواقف، فإن سورية ستُستبعد

عمليـاً من مسيـرة الخطوت ـ خطوة ولن تستفيد إلا القليل حتى مع الوصـول إلى تسوية شاملة. ومع هذا، في نهاية النهار، استخلصت القيادة السورية كما استخلصت مصر- بتحفظ أكبر أنه من أجل تحقيق أي تقـدم فإن دور أمريكا لا يمكـن الاستغناء عنه. ونتيجة لذلك فإن الغرض الأول لزيارة خدام كان الحيلولة دون استبعاد سورية من دبلوماسية الشرق الأوسط. لذا لم يستعرض أياً من المواقف النضالية المتبجحة فـي واشنطـن والتي كانت تميز لقاءاتنا الأولى في دمشق. كما أنـه تجنب الإشارة إلى أي تهديدات تخص التحـرك العسكري السوري المنفرد، والذي كان التحذير القياسي في جعبة الزعماء العرب الآخرين ـ إذ يستشهدون بالتهديدات السورية على أنها بديل غير مباشر منهم.

زيـارة خـدام في شهـر آب 1974 كانت من عـدة وجوه النقطـة الساخنة فـي العلاقـات الأمريكية ـ السوريـة. فقد قال على سبيل المزاح؛ إنه سيدعونني إلـى مؤتمر «القمة العربية» القادم نظراً لأن زملاءه كانـوا يطلعونني على كل شيء بكل الأحوال. ولكي يغيظ المصريين المكروهين فإنه لم يعارض مفاوضات مـع الأردن حول جزء مـن الضفة «بغض النظر عن مدى (توافق) ذلك مـع الحكم الذاتي للفسلطينيين». وخلافاً لأي مسؤول عربي آخر، فإن وزير الخارجية السوري لم يكن يساوي بين الكم الذاتي للفلسطينيين وبين «منظمة التحرير الفلسطينية». لم يكن الأسد يحب «المنظمة» كثيراً لأنه كان يعتبر أن دولة فلسطينية مستقلة ستشكل عقبة أمام «سورية الكبرى» وفقاً لاستراتيجية طويلة الأمد، بل كان يعمل دائماً على إيجاد قيادة فلسطينية جديدة تحت الوصاية السورية في مواجهة عرفات.

وفـي متابعـة لتلك السياسة أشار خدام إلى أن سورية قد تكون مستعدة للعمل مع الأردن لتطوير صيغة خاصـة للحكـم الفلسطيني الذاتـي لا ترتبط بمنظمة التحرير. ولكننا كنا نعي عـدم ثقة الحسين الدائمة بالأهـداف السورية البعيدة، ولهذا لم نتوقع أن ينجم أي شـيء عملي عن التعاون السوري ـ الأردني بشأن فلسطيـن. ولـذا كانت نتيجة زيارة خـدام ـ حتماً ـ المماطلة: وقد وافقنا علـى استمرار الحوار في دمشق وذلك عندما سأزور الشرق الأوسط مرة أخرى في غضون أسابيع.

كان الزائـر التالي وزير الخارجيـة السعودي عمر السقاف. كانت المملكـة العربية السعودية مجتمعاً تقليديـاً يقوم على المبـادئ الإسلامية الأصولية (قبـل أن تصبح الأصولية مسيّسـة). إذ كانت تراوح ما بيـن الراديكالية العربية والتحريريـة الفلسطينية الوحدوية، ومخاوفها الذاتية مـن جيرانها الطامعين، والخطـط الشيوعيـة. وكان زعماؤهـا يعلمون في النهاية، أن أمـن السعودية ـ وبقاءها حقـاً ـ يعتمد على المسانـدة الأمريكيـة، ولكن كان لديهم ثقة أقل فـي حكمنا على الأشياء وكانوا مهتميـن بألا يقلب تهورنا الحسابـات الدقيقة التـي تحافظ على بقائهم. كانت المملكة العربيـة السعودية خبيرة بما يخص الشعور بالأمـن من خلال العزلة، وضعيفة جداً فيما لو أصبحت لاعباً رئيسياً في دبلوماسية الشرق الأوسط. ولما كانـت غيـر راغبة بالمخاطرة بتماسكها الداخلي عن طريق حشر نفسها في عملية السلام، فقد تبنت دور

المراقـب الخيّر الـذي يشجع على عملية السلام مـن دون الإساءة إلى الراديكاليين فـي الدول المجاورة الصارمة التي أجبرها القدر على العيش بينها.

الـكلام الطنـان للدبلوماسيين السعوديين باسـم القضية العربية كان معصوماً عـن الأخطاء وعنيداً أحيانـاً، ولكن بعيداً عن العواطف، كانـت السياسة السعودية مساعدة دومـاً للدبلوماسية الأمريكية. فقد فرضت حظر النفط ضد الولايات المتحدة وهولندة لإظهار التضامن مع العالم العربي أثناء حرب تشرين (أكتوبر). ولكن هذا الإجراء كان رمزياً أكثر منه مؤثراً، إذ يمكن للنفط أن ينقل، وكانت الولايات المتحدة تحصـل على ما تحتـاج من نفط من منتجين آخرين أصبح زبائنهـم التقليديون يحصلون على النفط من السعوديـة. ولكن تأثير حظر النفط قد هـز العالم الصناعي، الذي حاول أن يزيد من مخزونه النفطي إذ استمرت الديموقراطيات الصناعية في ذلك حتى بعد أن رفع الخطر، مما رفع الأسعار بمقدار أربع مرات وسبب تضخماً وركوداً ـ وهو ما سأشرحه في الفصل 22.

شرح عمر السقاف جميع التعقيدات والمفاوضات السعودية، فقد كان وزير الخارجية مُنفّذاً للسياسة وليس صانعاً لها. فالاستراتيجية تضعها الأسرة المالكة ـ منذ أواسط الستينيات حتى أواسط السبعينيات علـى يد الملك فيصل الحاد الذهن، والحاذق، والشديد التكتم. وعند اتخاذ القرارات كان السقاف نادراً مـا يحضر محادثاتي مع الملك، وفي المناسبات النـادرة التي كان يدعى إليها، كان يجلس بعيداً مع باقي المستشارين بحيث يحتاج إلى أن يرفع صوته حتى يلفت انتباه الملك. (المقابلات الرسمية لم تكن تشجع على مشاركة المستشارين حيثما جلسوا نظراً لأن الملك فيصل وأنا الأساسيين، إذ كان يجلس أحدنا قرب الآخر وسط غرفة واسعة وفي مواجهتنا المترجم، فيما يجلس المستشارون قرب الجدران على بعد عشرة أقدام على الأقل من كل جهة).

كان السقـاف، بإيجاز ناقـل رسائل، ينقل ويتلقى الرسائل باسم الأسـرة المالكة، ويقوم بهذه المهمة بكل كياسة وحنكة. كان يدرك الأمور جيداً. ويعالجها بمواربة ويتجنب المواجهة والاستعراضات الدرامية إذا ما كانت الأمور دقيقة.

كان السقـاف قبـل كل شيء، عند زيارته واشنطن، مهتماً بأن يُبعـد الغضب الغربي حول أزمة الطاقة عن المملكة العربية السعودية. وقد حذرته من أن هناك حدوداً لصبر الغربيين:

> في رأيي أن أسعار النفط الراهنة ستخلق أزمة اقتصادية في الغرب، مما سيدفع حكومات أخرى، مهما كانت وجهات نظرها، إلى تصرف عنيف.
>
> فـي هـذه الظروف كان لـدى السقاف دافـع قوي كيلا يضخـم الضغوط علـى العلاقات العربيـة ـ الأمريكيـة عن طريق اتخاذ موقف صلب في مفاوضـات الشرق الأوسط. ومن أجل البيـان أعلن عن تحذير رسمي يستنكر استمرار الخطـوات المنفردة. ولكنه أقنعنا

أيضـاً أن المملكة العربية السعودية تصادق أي تقدم دبلوماسي دون أن تدعي مسؤوليتها عنه.

رابين يزور فورد

بـات كثيرون الآن يعتمدون على اللقـاءات الوشيكة مع إسحاق رابين، رئيـس وزراء إسرائيل الجديد، الذي وصل إلى واشنطن في العاشر من أيلول.

لسـوء الحـظ لم تكن علاقات فورد مع رابين جيدة قط، فمواجهتهمـا الأولى كادت تكون كارثة بسبب وقائع السياسات الداخلية في بلديهما. وكان هذا أمراً مؤسفاً، إذ كان على الرجلين أن يتغلبا عليها ويتفقا. كان رابيـن سفيراً إسرائيلياً لامعاً في واشنطن، حيث أظهر تفهماً غير عادي لتحفظ فورد المعتدل. وكان فـورد مؤيـداً قوياً لإسرائيل طوال فترة عضويته في الكونغرس. ومع هـذا فإن مناسبة لقائهما الأول جرت في فترة عصيبة من العلاقات الأمريكية ـ الإسرائيلية.

كان جـزء مـن المشكلة يعود إلى التكويـن النفسي لكلا الرجلين. فقد كان رابيـن عقلانياً وذا طبيعة تحليليـة، أما فـورد فكان عفوياً ويتصرف غريزياً. وقد كان رابين يتصـرف باستقامة متحفظة، أما فورد فـكان يتصرف بحرارة ونية طيبة. بنـى فورد تاريخه المهني في الكونغرس، وفـق مبدأ الحلول الوسطى، أمـا رابين فقد اكتسب شهرته بصفته رئيساً لأركان قوات الدفـاع الإسرائيلية، التي كانت تتطلب مهارات قياديـة، أمـا فورد فقد أمضى حياته كلها في السياسة، في حيـن أن رابين تعلم فن السياسة عند الدخول إلى عالمها.

لا يمكن تخيل التناقض الكبير بين رابين وسلفه، غولدا مائير المقتدرة، التي عرفتها واشنطن جيداً. كانـت غولـدا في الواقع أكثر صلابة من رابين، ولكنها كانت تخفـي صلابتها وراء سلوك من الوداعة غير عـادي. وبصفتهـا من الـروّاد في إسرائيل فقد كانت تعتبـر كل شبر من إسرائيل مقدسـاً، بما في ذلك ـ عمليـاً ـ فتوحاتها. كانت المناقشات حول الاستراتيجية بعيدة المـدى تتعبها. وكان أكثر ما تخشاه غولدا أن تُفرض صفقة سوفييتية ـ أمريكية ما على حسـاب إسرائيل، مع أن مثل هذا الترتيب لم تجر مناقشته أو التداول فيه مطلقاً.

تابعـت غولـدا مائير اتفاقيـات فك الاشتباك مـع مصر وسوريـة دون أي حماسة تُذكـر للوصول إلى تحريـر الأسـرى الإسرائيليين. وبمناسبة زيارة نيكسون إلى إسرائيل فـي حزيران 1974 بعد أسابيع قليلة مـن تنحيها عن منصبهـا، قالت غولدا للرئيس: إنهـا ستعارض أي انسحاب إسرائيلـي جزئي لأي سبب. وبالتالـي، كانت تقـول: إن إسرائيل ينبغي ألا تنسحـب إلا مقابل اتفاقية سلام نهائيـة. واستثنت من هذا انسحـاب أي مستوطنة أينما وجدت، وبهذا رفضت مبدأ حـدود 1967 بصفته أساساً لاتفاقية سلام حتى مع مصر، جارتها الأقرب إلى المصالحة.

وبقدر ما كانت غولدا مائير صارمة تجاه المفاوضات، فإنها لم تظهر ذلك علانية عندما تحدثت عن علاقات إسرائيل مع الولايات المتحدة. بل كانت تعي دوماً حقيقة أن بقاء إسرائيل، في النهاية، يعتمد على النوايا الحسنة للولايات المتحدة. ولذا كانت تشجع هذه العلاقة بكثير من الاهتمام. وعلى شاشة التلفزة الأمريكية أظهرت غولدا مائير نفسها أماً للأرض ـ عاطفية، ذكية، انتقادية أحياناً مع إبداء شيء من الحزن أكثر من الغضب. أما تجاهي فقد كانت أقل تحفظاً إلى حد ما، ربما لأنه بدا لها أن ديانتي اليهودية ستدفعني إلى أن أُبدي دعماً غير محدود لإسرائيل، وإن كان هذا لم يمنعها من أن تُعلن شكواها كونها عمةً عجوزاً من ابن أخيها المراس. وعندما شكا لها مؤيد أمريكي لإسرائيل أنني أُعطي الأولوية لواجباتي تجاه عملي قبل التزاماتي تجاه ديني، أجابت «لا أهتم بذلك. فأنا أقرأ من اليمين إلى اليسار على أي حال».

وعلى النقيض من ذلك وجد رئيس الوزراء رابين عام 1974 نفسه في وضع أقل درجة. إذ لما كان أول مواطن مولود في إسرائيل يصل إلى هذا المنصب، فإنه لم يشارك في الحماسة الصاخبة لجيل الرواد من القادة الإسرائيليين السياسيين، ومعظمهم من المهاجرين، الذين أسسوا الدولة وصاغوا بنيتها. ويظل ممثلي هؤلاء البارزون أمثال غولدا مائير التي تتزعمهم، وموشيه دايان، الذي كان مُحبطاً لأن إخفاقه في التحرك عشية «حرب يوم الغفران» قد حرمه من منصبه الذي تحرشه له مواهبه وإنجازاته كما بدا في وقت من الأوقات.

وفي الوقت نفسه كان رابين يشعر بضرورة الحذر من منافسيه في حكومته. فقد كان يحيط به كل من إغال آلون وشمعون بيريز. وقد كان رابين يثق بأخلاق آلون أكثر مما يثق بذكائه، أما تقديره لبيريز فكان على العكس تماماً. فقد كان آلون أعلى منه في قوات الدفاع الإسرائيلية، ولكنه كان أكثر اهتماماً بالمادة من اهتمامه بالمنصب، ولم ينافس رابين على الأولوية لا خفية ولا على نحو مباشر. بل ما وقف ضده هو استراتيجية رابين. إذ لما كان مدافعاً قوياً عن الخيار الأردني، فقد كان نافذ الصبر تجاه الاستراتيجية الحذرة لرابين؛ إذ كان يفضل عقد اتفاق حول الضفة الغربية أولاً ثم يقرر الخطوة التالية بعد ذلك.

وزير الدفاع شمعون بيريز خلف الرجلين بعد أن توفيا على مدى العقدين التاليين. كان بيريز مهندس «الارتباط مع فرنسا» الذي زوده بالأسلحة التي أكسبت بلاده حرب الستة أيام عام 1967. كما ساعد على الحصول تطوير وكثير من الأسلحة التي ما تزال بلاده تعتمد عليها. ولعله كان أيضاً من أوسع الرجال معرفة من ذلك الجيل أي من زعماء إسرائيل. وكان يغريه التفوق دوماً. بيد أن هذا الجمع ما بين الطموح والعقلانية المجردة لم يتوافق مع مزاج الشعب الإسرائيلي، بل وساهم في هزيمته فيما لا يقل عن خمس دورات انتخابية، بما في ذلك المنافسة على منصب رئيس الوزراء.

وعلى مدى عقود المنافسة بينهما كان تفكير بيريز في العلاقات مع جيران إسرائيل يسير على منهج رابين نفسه «صقر» إلى أشبه ما يكون بـ«الحمامة». الفرق بينهما أن بيريز كان يدرك بالحدس، في حين

كان رابين تحليلياً، وعقلانياً عملياً. تدرب بيريز في فرنسا فاتصف بمسحة الأكاديميين الفرنسيين الذين يؤمنـون بـأن تكوين الفكرة يعادل تحقيقهـا. وفي النهاية، فإن هذه المثالية أعطتـه الدافع لعقد اتفاقيات أوسلو مع منظمة التحرير عام 1993 .

وبعـد ذلـك، وحتى نهاية حياة رابيـن. ظل رابين وبيريز يُشكلان شراكة مثاليـة تماماً. فقد كان لدى بيريـز أفـكار جيدة ينتقي منها رابيـن الأكثر فائدة لاستراتيجية شاملة. وعندنـا قُتل رابين في ت2 1995 خسر بيريز حلمه بالسلام، لأنه من دون رابين لن يستطيع طرحه على الجمهور الإسرائيلي.

عندما ظهر رابين وبيريز في الحكومة ذاتها في شهر حزيران 1974، كانا متنافسين شديدين. إذ كان بيريز ينتقد رابين بقوة؛ بحجة أنه ينصاع كثيراً للولايات المتحدة. ولكل هذه الأسباب كان رابين يتصرف بحـذر، ويعطي الأولوية الكبـرى لتماسك حكومته أكثر مما يهتم بمتطلبـات الدبلوماسية. كما أنه لم يكن يستمتـع على نحو خاص بلعبة السياسة. وكان يفتقـر بسبب شعوره بالخجل إلى القدرة على المناورة تجاه قصيـرة، ويشعر باستحياء لعرض مشاعره ـ وكان هذا أمراً ملحوظاً أكثر من أي شيء آخر لأن أصدقاءه كانـوا يعرفـون جيداً أن رابين عاطفي جداً في صميم مشاعره. ومـا إن يدخل أحدهم في دائرة أصدقائه حتـى يتحـول عنفوانه إلى مودة. وكانـت ابنته تقول عنه: إنه يتألق بمشاعره بدلاً مـن أن يعبر عنها. ولكن خـلال دورته الأولى بصفته رئيساً للوزراء كان عجزه عـن الوصول إلى البعد الإنساني ـ يقلص من قدرته ويُعقّد بالتأكيد علاقاته مع جيرالد فورد غير المتحفظ.

كان أمراً مؤسفاً. فقد كان رابين يفهم أكثر من غولدا أن الجمود الدبلوماسي، على المدى البعيد، من شأنـه أن يعـزل إسرائيل دبلوماسياً إلى حد ما حتى عن الولايات المتحـدة. لقد علمته خدمته عندما كان سفيراً في واشنطن أثناء حرب فيتنام أن هناك حدوداً لرغبة أمريكا في استمرار خطر الحرب وتكاليفها الاقتصادية من أجل حليف بعيد جغرافياً. وبعد عدة محادثات خاصة، لم يعد لدي شك أن رابين قد وافق على استراتيجيتنا الأساسية. وقد لخصها أثناء اجتماعه مع فورد في 11 أيلول على الوجه التالي:

> إن الوضـع الحالـي لا يمكـن أن يبقى جامداً. فنحـن لا نعتقد أن هذا الوقـت يمكن أن يخلـق وضعاً راهنـاً جديداً، لأننا نعتقد أن الـدول العربية قد تعلمـت أن الجمع ما بين عزلة إسرائيل في المجتمع الدولي، واستخدام قوة محدودة أو بالأحرى استخدام القوة لأهـداف محدودة ـ واستخدام النفط لابتـزاز الولايات المتحدة، يمكن أن يكون وسيلة للحيلولـة دون تجميد الوضع. لـذا هناك احتمالان ممكنان ـ إمـا التحرك نحو تسوية، وإمـا حـرب أخرى، ليس لدينـا سبب للافتراض أن الوضع الراهن الجديـد يمكن أن يصمـد لأي فترة من الوقت. ربما ثلاثة أشهـر، أو ستة أشهر، ولكن ليس إلى فترة غير محددة.

تعلـم الرجل العسكري رابين، خطوة خطوة على مضض قواعد السلام. في مجرى حياته في الخدمة العسكرية، وبات مقتنعاً أن الأمان طويل الأجل يتطلب من إسرائيل أن تذهب إلى ما هو أبعد من مراكمة القوة العسكرية. إن شعباً نجا من تاريخ يهودي مأساوي محكوم بهاجس أبدي من كارثة، ولا يمكن أن يترك بقاءه وهوناً بالإدارة الحسنة للدول الأخرى. ولكن دولة من 5 ملايين وسط بحر من بضعة مئات الملايين، ربما كانت غالبيتهم تعتبر أن الدولـة اليهودية غير شرعية، سوف يستنفذون وجودها إذا وجدت وأن لا سبيل للتغلب علـى الكراهية المشتركـة. لقد اقتنع رابين بالتدريج ـ ثم التزم بذلك بعمق ـ باقتراح أن يحاول شعبه تجربة سلام المصالحة، وليس مجرد القوة.

كان علـى رابين أن يتجاوز قدراته الطبيعية كي يصل إلـى هذا الاستنتاج. قبل أسبوعين مـن اغتياله حضّه غاريث إيفانز، الـذي كان آنذاك وزيراً لخارجية أستراليا، على اتخاذ بعض الخطوات باتجاه عملية السلام «ولكنني أشير إلى ما اغتصب» أجابه رابين: «ليس إلـى مـا اغتصب، بل إلى ما يجب عمله». كان يفضل أن يطرح أفضلياته، ولكنه كان يفهم أن هـذا يتطلب جولـة من استخدام القوة، تفوق قدرات إسرائيـل الفعلية والعاطفية على المدى البعيد.

لـم تكن رحلة سهلـة. فرابين، كشأن مواطنيه، كان يكره فكـرة مقايضة فوائد محسوسة كالأرض، من أجل أن يكسب اعترافاً دولياً وتقليصاً لعداوة العرب. وكان يعرف من خبرته العسكريـة أكثر من آخرين كثيرين أن التنازلات المطلوبـة من إسرائيل كانت دائمة، في حيـن أن إسهامات مستشاريه كانت تصر على تصريحات يمكن إلغاؤها حول نية السلام والاعتراف به.

فـي البداية تحـدث رابين عـن «شبر من السـلام مقابل شبـر من الأرض». ولكنه في النهايـة كان شديد التعقيد في الحديث عن قابلية قسمة السلام. وهكذا وصل إلى رؤيته الختاميـة: السـلام بالنسبة إلى إسرائيل هو خلق واقع جديـد للشعب اليهودي أكثر منه مجرد تحديد قانوني. ولما كان الشعب قد عاش في الأحياء اليهودية (الغيتو) لمدة ألفي سنـة تقريباً، فـلا ينبغي أن يحّولوا وطنهـم القومي، كما يقول رابين: إلـى «غيتو» آخر، منقطعين عن باقي الإنسانيـة بالعزلة السياسية والفلسفية. بل ولا يستطيعون أن يتخلوا عـن اهتمامهم بالأمن لهذا السبب، ولكن ينبغـي ألا يحددوا مستقبلهم بالكامل بطريقة عسكريـة. فالإحساس العالمـي بالخسارة الذي ولدّته وفاة رابين تُبيّن كم كان قريباً من تحقيق هدفه.

لـم يتطرق الشك قـط إلى رابين بأن المسيـرة مؤلمة، ولم يلجأ قط إلـى وصف السلام بطريقـة خياليـة. ومع أنـه كان مستعداً لاحتمال عـدم نجاح جهوده فقـد كان متأكداً أن إسرائيـل تستطيـع أن تواجه شدتها القصوى من أجل تحقيق هـذا الجهد. كان من يهود «الصابرا»، وحياته تتضمن أشكالاً شتى من النضال. ولكن إذا كان رابين قد سمح لنفسه بـأن يعرض مشاعره، فقد كان ذلك عندما تحدث عن الجنـود الإسرائيليين الذين قتلوا فـي المعركة والأسر التي تلاشت بسب حـروب إسرائيل التي لا تنتهي، كما قال في كلمته المؤثرة أثناء زيارته التالية بصفته رئيساً للوزراء:

أمـرت بتنفيذ كثير من العمليـات العسكرية بصفتي عسكرياً وقائـداً ووزيراً للدفاع. ومع الانتشـاء بالنصر والحـزن لفقدان الأهـل، سأتذكر دومـاً لحظة اتخاذ قـرارات مؤثرة كسكـوت كبار الضبـاط أو وزراء الحكومـة وهم ينهضون ببطء، مـن مقاعدهم، ومنظر ظهورهم المتراجعة إلى الوراء وصوت انغلاق الباب ثم الصمت الذي يحيط بي وحيداً.

تلـك هـي اللحظة التي تدركها نتيجة لقرار اتخذته، فيما النـاس يموتون. أناس من أمتي ومن أمم أخرى. ومع هذا لا يعرفونها.

فـي تلك الساعة كانوا ما يزالون يضحكون ويبكون، مـا يزالون يضعون الخطط ويحلمون بالحـب، ويفكرون في زراعة حديقة أو بناء منزل ــ دون أن يدركوا أن هذه الساعات هي الساعـات، الأخيـرة التي تبقت لهم على الأرض. من منهـم مقدر عليه الموت؟ من منهم ستظهـر صورته ضمن إطار أسود في صبيحة اليوم التالـي؟ من منهم ستُنجح به والدته سريعاً؟ من سيتداعى عالمه تحت وطأة الخسارة؟.

بصفتـي عسكرياً سابقاً، سأتذكر أيضاً صمـت اللحظة التي تسبق دوران عقارب الساعة حيث يجري الوقت بسرعة، وبعد ساعة أو دقيقة ينفجر الجحيم.

فـي تلك اللحظة من لحظـات التوتر الشديد قبل أن يضغط الإصبـع الزناد وقبل أن يبدأ الفتيل بالاشتعال ـ في لحظة الصمت الرهيب، يظل هناك وقت للتساؤل، للتساؤل وحيداً: هل من الضروري حقاً القيام بذلك؟ ألا يوجد خيار آخر؟ أليس من سبيل آخر؟[9].

لا يحـط مـن مكانة رابين أن يسترجـع ذلك، في بدايـة حياته الدبلوماسيـة، أو أن يعيق خطواتـه نحو العظمة.ف العلاقات مع فورد كانت بداية سيئة عندما تباطأ رئيس الوزراء الإسرائيلي الجديد في المجيء إلى الولايات المتحدة لمقابلة الرئيس. إذ أراد أن يكسب الوقـت كي يعزز وضعه الداخلي. وأعتقـد أيضاً أن إسرائيل كانت تحتاج إلى بعض الوقت كـي ترتاح من العمليـة التي بدأت بهجمات مفاجئة من جانب مصـر وسورية، وهي تهدد

الآن بإيقاعـه فـي شرك قرارات تبدو لا نهاية لها والتي من المؤكد أنها ترمي إلى توريطه مع وزرائه.

بـدأ شد الحبل عندما أعلنت وزارة الخارجية أن رابين دُعي لمقابلة الرئيس في النصف الأول مـن شهـر أيلول، وأجاب عن ذلـك بالشكوى بأن الإعلان عن الدعـوة دون مشاورة الزائـر أولاً هو خرق للبروتوكول. من الناحيـة البرتوكولية كان رابين على حق. ومن جهة ثانية، لم يحدث أن أُحرج أي رئيس إسرائيلي للوزراء من قبل بالإعلان عن دعوته لمقابلة الرئيـس الجديد الذي يعتبر من أخلص الأصدقاء لإسرائيل ـ ولاسيما أن وزراء خارجية العـرب المقيميـن في واشنطـن ينتظرون بالـدور لفترة تزيـد على شهر. ومـا إن وصل رابين حتـى دافع على طريقة الخطوة ـ بخطوة ولكنه عارض فورد حول التحديد المتعلق بمواعيدهـا. كان العناد صفة مألوفة فـي أي مفاوضات تجري حول انسحابات إسرائيلية وإلـى هـذه اللحظة، وما جعل رابين مختلفاً عن سابقيه أنـه لم يحجم عن مجابهة رئيس الولايات المتحدة.

إذ مـا كانـت غولدا مائير الحذرة إلا أن تتجنب ربط مكانتها بجدال علني مع الرئيس؛ بل وكانت تركز نيرانها دوماً على بعض مساعديه، وغالباً عليّ. أما رابين فقد عمد، على العكس، إلى أن يُلمّع صورته أمام أعضـاء وزارته بطرح اعتراضات مباشرة على إدارة الرئيس الأمريكي للمفاوضات. لعل ذلك كان أسلوبه كـي يُعلّم زملاءه المتفرقيـن والمختلفين حدود الاعتدال الأمريكي، ولعله ظـن أن فورد أسهل في التعامل مني. ومهما كان السبب فقد أسبغ حدة غير عادية على حوار أولي.

تابـع رابيـن هذه المقارنة من خلال المناقشـات التي تتعلق بالمساعدات العسكريـة ـ وهي الموضوع الـذي يستخدمه رؤساء الـوزارات الإسرائيليون كي يضمنوا أنهم عادوا مـن واشنطن إلى بلادهم بإنجاز ما. (والحق أن تنفيذ بعض مطالب إسرائيل العسكرية كان إجراء عملياً معتاداً في كل زيارة لرئيس وزراء إسرائيلـي). قـدم رابين مطالب إسرائيـل العسكرية، كما فعـل آلون مع نيكسون، علـى أنها شرط مسبق لقبولهـا بالمفاوضـات. والانطباع بأن إسرائيل تنخرط في عملية السلام كونه معروفاً تقدمه إلى الولايات المتحدة قد أغاظ فورد إلى حد بعيد. ولم يتحسن مزاجه عندما أصر رابين على أن مركزه بوصفه جنرالاً سابقـاً يؤهله للبحث في تفاصيل مطالب إسرائيل من العتاد العسكري مباشرة مع الرئيس. ولما كان فورد أكثر معرفة بالموضوع من نيكسون، فإنه لم يكن على اطلاع واسع على جميع التفاصيل الفنية، وكان يظن أن المسألـة يجب أن تناقش مـع وزراء الدفاع. ولكن نظراً للمنافسة ما رابيـن وبيريز، فقد أراد رابين أن ينـال مصداقيـة النجاح لنفسه. وظل يصر على طلب إسرائيل الهائل الـذي لا سابق له والذي يمتد طوال عشر سنوات، ويقلل من شأن الإجراءات الجزئية كافة. وساد صمت مؤلم بعد أن أخبر فورد رابين، محاولاً

تحقيـق تقدم، أن يوافق على الأولويات الملحة للقائمـة الإسرائيلية في السنتين القادمتين. همس السفير الإسرائيلـي سيمحـا دينيتز بكلمات ما فـي أذن رابين. ولكـن رابين كرر الحجة نفسهـا التي استخدمها آلـون مـع نيكسون إلى حد أن بعضـ المبادئ العامة التي جاءت في مذكرة التفاهـم المتعلقة باتفاقية فك الاشتبـاك مع سورية في أيار، وصلت إلى التزام خاص ببرنامـج للتسلح يمتد عشر سنوات. ولهذا لم يكن رابيـن مستعـداً لأن يكون فوراً أقل كرماً بالنسبة للائحة إسرائيـل ذات الأولوية، وقال: «يعتقد سفيري أنه ينبغي أن أشكرك، ولكن كم من الممرات ينبغي أن نعبر فيها عن ترحيبنا بالشيء ذاته؟».

وعندما تحولت المباحثات إلى الموضوع الرئيسي بالنسبة لفورد ـ وهو مستقبل عملية السلام ـ وافق رابين على استراتيجيتنا العامة دون أن يلزم نفسه بتنفيذها. وطرح تحليلاً دقيقاً لعدة خيارات:

فـي رأيي أنه من الأفضـل البدء مع مصر. إنه ليس شرطاً مـن جانبنا. لأنه في السنوات السـت والعشرين الأخيرة لم يكن هناك أي تحرك من أي نوع ـ حرب أو ترتيب سياسي ـ من دون قيادة مصر. ففي عام 1949 عندما قررت مصر الهدنة، سعى الجميع كي يحذوا حذوها.

وفي عام 1956 كانت هناك حرب بين مصر وإسرائيل فقط. وفي عام 1967 قادت مصر الحرب. ولا أعتقد أن هذا الترتيب يمكن أن يتغير بصورة جوهرية.

نحن نعـرف، مثلاً، أن الأردنيين لا يستطيعون القيام بأكثر مما يقوم به العرب الآخرون، مثـل اتفاقية لفك الاشتباك. لذا إذا كنا نريد أن نحقق الأفضل في الترتيبات السياسية، فينبغي أن تكون مع مصر..

.. عندئذ إذا حاولت سورية الحرب فستكون أقل خطورة..

كانـت المشكلـة أن رابين لم يعارضـ أياً من هذه الخيارات، كما لـم يكن مستعداً للقبول بها. فقد كان عرضه نظرياً، بل وأقرب إلى أن يكون أكاديمياً، ولم يكن يتضمن أي إجراء عملي ـ بل على العكس فعلاً. أما فورد من جانبه، والذي كان متعطشاً للوصول إلى قرار. فقد فسّر عرض رابين المطوّل على أنه خدعة. ففي الفترات الفاصلة كان يقاطع بالسؤال عـن إطار زمني دقيق. وكان يقول: «إن الأمر يحتـاج إلى التزام قوي وجيد لأن كلينا لديه اهتمـام قـوي باستمرار الزخم». لـم يكن رابين ليغامـر بأكثر من وعد يعـد بموجبه أنه سيفعل أقصى ما في وسعه كي يتقبل الأفكار الملموسة، في الوقت الذي سأقوم به بزيارة إلى الشرق الأوسط بعد شهر من الآن ـ وبهذا يكون قد أجل بداية المفاوضات حتى ذلك الوقت على الأقل.

مـا حـدث أنه حتى تلك الجولة المكوكيـة ـ من 9 تشرين الأول إلـى 15 منه ـ أخفقت في الوصـول إلـى اتفاق للشروع في مفاوضـات علنية. زرت فيها مصـر وسورية مرتين، كما زرت إسرائيـل والأردن والمملكـة العربيـة السعودية والجزائر ومراكش. جميع الفرقاء كانـوا يكـررون النغمـة نفسها. فقد أصـر السادات علـى أن الأولوية يجـب أن تعطى لما يتعلـق بالانسحابـات من الجبهـة المصرية. ومن أجـل الإسراع في البـدء بها وافق على منـح إسرائيل كثيراً من العناصر العملياتية لعدم المحاربـة دون استخدام هذا التعبير. وكان الأردن تواقـاً للتفاوض حول الضفة الغربية ولكنه ازداد خيبـة أمل وإحباطاً. وكان الأسـد يفضل، رغبـة منه في تحقيق أي تقـدم، طريقاً مسدوداً أمـام أي ترتيب مصري منفـرد.. فوجهات النظر عدم المتوافقة هذه كانـت جميعها نظرية صرفة، لأن الحكومة الإسرائيليـة لم تكن مستعدة بعد لفتح الباب أمام أي مفاوضات. فكتبت مُحبطاً، تقريراً إلى فورد في صورة مذكرة بريدية في 15 تشرين الأول:

رابيـن والآخـرون يتشبثون بأزمـة التاريخ والمنطق. فقـد كان التاريخ تاريـخ آلام ومآس وشكـوك/ ومعانـاة/ وأربعة حـروب باهظة الثمن، أمـا المنطق فيتجلى فـي أن مخاطر المحافظـة على القديـم أكبر من المواجهة الواقعية للتسويـات التي تتم خطوة ـ وخطوة والضروريـة للتقدم نحو تسوية، لأن الخيارات التي يواجههـا (زعماء إسرائيل) ستحتاج إلـى سنة مـن الآن وإذا تركـوا الوضع يندفع فستكـون الأمور أسوأ ممـا يواجهونه الآن.. لدينـا اهتمام ثابت في دعم أمن إسرائيـل، ولكن مصالحنا في المنطقة أبعد من أي بلد بمفرده.

استراتيجيتنـا أن توزع المسائـل إلى قطاعات بحيث تتفاوض إسرائيل مع جيرانها ضمن وحـدات تفاوضيـة. قابلة للعمـل سياسياً.. تستند إلـى الاعتقاد بأن سلسلـة متقدمة من الاتفاقيـات المحـدودة، يمكن أن تخلق أوضاعاً جديدة تجعـل بدورها الاتفاقيات الأوسع ممكنة.

قرار الرباط

علـق رؤساء الدول العربية خياراتنا عند هذه المرحلـة بعرض ما وصفه أبا ايبان ذات مرة بميلهم إلى «ألا يضيعـوا أي فرصة كـي يضيعوا فرصة». ففي 28 تشرين الأول، عقـدوا اجتماعاً في الرباط (مراكش) واعترفـوا جميعاً بمنظمة التحرير الفلسطينية على «أنها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني». ولما كنـا قادريـن على التقـدم في مفاوضات مجديـة مع الأردن فقد حـال هذا الموقف دون ذلـك. فقد أصبح الحسيـن الآن خارج الصورة. ومن هنا فـإن ترتيبات الضفة الغربية ستصبح موضع تفاوض مع «المنظمة»

التي كانت إسرائيل ترفض التفاوض معها. وأعلن الحسين بشجاعة: «عندما ينجرف قومي أنجرف معهم». ولكن نظراً لرفض «المنظمة» العنيد حق إسرائيل في الوجود ولاستخدامها الشديد للإرهاب أداةً للسياسة، فقد كان على قرارات الرباط أن تتجمد لمدة 19 عاماً حتى تبدأ المفاوضات حول الضفة الغربية.

بقيت لفترة طويلة أعتبر أن انهيار الخيار الأردني عام 1974 فرصة كبيرة قد ضاعت. وقد حدث ذلك بصورة مجردة. ولكن المفاوضات لم تحدث أبداً في فراغ. فقد تطلب الأمر من إسرائيل 20 سنة، وانتفاضة فلسطينية، وقيادة فلسطينية أكثر واقعية، حتى تعتاد على التعايش مع «منظمة التحرير الفلسطينية». كما لم تكن سياسة جر الحسين من الضفة الغربية بالسهلة كما قد تبدى نظرياً. فاستحواذ الحسين على أي أراضٍ في الضفة الغربية من شأنه أن يخلق ضغوطاً عربية شديدة من أجل إعادة الأراضي المكتسبة إلى «المنظمة» فكان لابد من حدوث أزمة كبرى، وهذا هو السبب الأساسي حقاً الذي جعل السادات حريصاً على أن تكون مصر الأول من تشرع في المفاوضات.

وبعد عقدين من الزمن، في صيف 1994، جلست قرب عرفات في حفل غداء في باريس للاحتفال بتقديم جائزة سلام لرابين وبيريز وعرفات. واسترجعنا ذكريات من نجوا من حروب طويلة بعيدة ومعارك تكاد تنسى، ومعارك صيف 1974. ولاحظ عرفات ـ بشكل صحيح ـ أن التسوية المؤقتة لاستيطان الأراضي في الضفة الغربية أي الذي احتفل به في البيت الأبيض في أيلول 1993 بدت له مشابهة لما كنت أحض الأطراف عليه منذ عقدين. وقد ذكرته بفارق مهم: إذ كان الهدف إبعاد منظمة التحرير عن الضفة الغربية، وليس إعادة الأراضي إليها. فلم يستأ عرفات. وقال مثل أستاذ جامعي يدرس العلوم السياسية الأولية لطالب بطيء الفهم: «لايهم. الحسين لا يستطيع أن يسيطر عليها بنفسه. لقد أسسنا وجودنا هناك الآن».

التاريخ يعمل بطرائق غريبة. فقد أظهر الجمود في خريف 1974 أنه شرط مسبق للاختراق في المفاوضات المصرية ـ الإسرائيلية والتي قادت في النهاية إلى اتفاق السلام. لقد جلبت إلى الساحة بخطا متعرجة بطيئة أزالت جميع الخيارات الأخرى، تحت رعاية رجلين عظيمين هما إسحاق رابين وأنور السادات. فلكل منهما كانت له أسبابه لترتيب جمود دبلوماسي مؤقت كي يمهد للخطوة التالية نحو السلام: فرابين يريد أن يعزز وضعه الداخلي ويعلم زملاءه في المجلس حقائق الحياة الدولية، والسادات يسعى بثقة خطا ثابتة نحو سلام منفصل عن أشقائه العرب ـ رغم أنه وقع تأكيدات مشتركة على الوحدة معهم في الرباط. وبعد أشهر من الاستطلاع توصلنا إلى مرحلة مصيرية تمثل النقطة التي تعبر عن الأهداف الفورية لكل فريق، وإن كان ذلك بثمن باهظ.

فعلى حساب 19 عاماً من الجمود في القضايا الفلسطينية، استطاع رابين أن يوفر الوقت الذي يريده ليؤهل نفسه لمنصب رئيس الوزراء، وأن يشرع في مفاوضات مع مصر، والتي كانت تعتبرها إسرائيل المفاوض المرغوب به أكثر من غيره.

من جهته حوّل السادات الاتجاه، على حساب عزل نفسه عن العالم العربي، نحو مفاوضات مصرية ـ إسرائيلية منفصلة وسلام نهائي.

أما الزعماء العرب الآخرون فقد عملوا بدرجات مختلفة، على حساب استبعاد أنفسهم عن مفاوضات تالية حول الضفة الغربية، على إرضاء متطلباتهم السياسية الداخلية، وذلك عن طريق تأييد منظمة التحرير الفلسطينية.

خلال هذه الفترة أحكمت الولايات المتحدة الطوق حول القوى التي ما إن يُسمح لها أن تشارك، حتى تسارع إلى تدمير عملية السلام، وهم: المتطرفون العرب، والاتحاد السوفييتي، كما أن معظم حلفائنا الغربيين سيحاولون عندئذ التحرر من أزمة النفط بدعم المواقف العربية المتطرفة. كان مقياس الإنجاز أنه تأكد لجميع الأطراف أن الإطار الدبلوماسي الذي أوجدناه ينبغي أن يستمر تحت الإشراف الأمريكي.

obeikandl.com